

داريوش شايان

النفس المبتورة

هاجس الغرب في مجتمعاتنا



النفس المبتورة

داریوش شایگان

النفس المبتورة

هاجس الغرب في مجتمعاتنا



الساقی

Daryush Shayegan, **Le Regard Mutilé**

© Albin Michel, 1989

© الطبعة العربية : دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٩١

ISBN 1 85516 700 x

موجز

الكتاب الأول: التمزق

- I - بداية نهاية موقوفة ١١
- II - «إجازات» في التاريخ ٢٢
- III - بعض أمثلة: الصين والعالم الاسلامي ٢٧
- IV - الخوف من فقدان الهوية ٣٣

الكتاب الثاني: التفاوت الوجودي

- I - الواقع دائماً في مكان آخر ٤٥
- II - التحجر المدرسي ٥١
- III - التغير الجذري ٥٩
- IV - في زمن الصراع بين الجذرين ٦٥

الكتاب الثالث: حقل الاختلالات

- I - وعي «متأخر» عن الفكرة ٧٥
- II - منحدر التصفيح: التفرنج والتأسلم ٩٤
- III - عالم اللامكان (عالم الطوبى) ١٢٢

الكتاب الرابع: المرتكزات الاجتماعية للاختلافات

١٤٥	I - المثقفون
١٦٨	II - الفكريون
١٧٧	III - التكنوقراطيون
١٨٧	IV - احترايو الله

مقدمة

«النفس المبتورة» بحث في تشوهات الفكر والروح التي تشوب حضارات لم نشارك التاريخ أعياده، بل راحت تتقهقر.

ان تجربتي الشخصية في العالم الإيراني - الإسلامي هي التي أملت هذا الكتاب، ومع هذا فيقيني أن مدى الكتاب يتعدى ذاك العالم. فهو، أيضاً، وبطريقة ما، يطال معظم الحضارات التي لا تزال بناها العقلية محكومة بالتراث، فيما هي تعاني استيعاب الحداثة.

فنحن، أهل أطراف العالم، نعيش في زمن الصراعات بين مختلف قوى المعرفة واتجاهاتها. اننا واقعون في فجوة العوالم المتفارقة التي تتدافع فيشوّه أحدها الآخر. فاذا ما أقبلنا على هذا الإزدواج بشكل صريح، ومن دون نفور، أمكن له أن يغنينا ويوسّع معرفتنا وشبكة أحاسيسنا. أما ان نكبت هذا الازدواج القيمي ونطرده من المجال النقدي للمعرفة، فذلك لا يفعل غير اغلاقنا على نفوسنا وحبسنا فيها، وبتر نظرنا الى العالم الذي يصير واقعه مشوهاً، وكذلك خيالات الافكار. وبهذا يصبح العالم تماماً كما في المرأة المكسورة.

ولأن تجربتنا ليست مشكلة الغرب، يغيب تقدير مضمونها الفعلي عنه. فأولئك الذين يدفعون أكلاف هذه التجربة من وعيهم التاعس، أي نحن، هم وحدهم المؤهلون لأن يبرزوها ويعملوا على تظهيرها.

يرتسم وراء هذه التباينات عالمان متنازعان، واختباران تاريخيان مختلفان، لا يمثلان، على الرغم من التفاوت الكامن بينهما، سوى وجهين لتجربة واحدة وحيدة للإنسان في العالم. وعلى المجابهة النقدية لهذين العالمين، سيتوقف، في المستقبل، امكان الحوار بين سكان المعمورة.

الكتاب الأول التمسّق^(*)

(*) مقالة ظهرت في : Le Débat, Gallimard, no. 42, novembre - décembre, 1986.

I

بداية نهائية موقف

إن تأثير الغرب والحداثة التي تقف وراءه يثيران في أيماننا ويحركان في العالم الاسلامي مدارات مقاومة عديدة، فيولدان تارة تراجعاً إلى أسطورية الأصول، ظناً بأنها تحلّ بأعجوبة كل التعاسات الأخلاقية والتفاوتات الاجتماعية التي تشكو منها هذه المجتمعات، وتارةً يسببان هرباً إلى الأمام نحو مغامرات متزايدة المخاطر، وتارةً أخرى يحركان رفضاً قاطعاً لمواجهة تحديات الأزمة الجديدة. إن كل هذه المهارب والمخارج المنحرفة إلى هذا الحد أو ذاك، تعبر عن وجوه شتى لظاهرة واحدة، وترجم أعراض قلق عميق، بصرف النظر عن أشكال ردود الفعل المنظورة. وفي رأيي، هذا القلق صادر عن عدم فهم أو، إذا شئتم، عن عدم تمثّل واستيعاب ظاهرة تاريخية كبرى - الحداثة في معناها الواسع جداً - لم تؤخذ كما هي في الحسبان، أبداً، أي موضوعياً في دلالتها الفلسفية الخاصة، بل كانت تؤخذ دائماً وفقاً للتحويلات الأليمة التي ألحقتها بتقاليدنا وموروثاتنا، في طرق معيشتنا وتفكيرنا. والحال، فإن كل حكم لها أو عليها ارتدى، منذ بداية الاحتكاكات والاتصالات، رداء التقويم الأخلاقي؛ فكان تقويماً امتداحياً في بداية التلاقي مع القوة المادية للغرب، عندما اكتشف العالم الإسلامي، بدهشة كبرى، تأخره والهوة السحيقة التي كانت تفصله عن أوروبا؛ وكان تقويماً لعيناً عندما انغلق هذا العالم، لاحقاً، أمام تأثير أوروبا، وراح يستثير هواماته الأكثر هذياناً. ولئن كانت ردة الفعل الأولى شديدة الحماس، فإن ردة الفعل الثانية

اقرنت، على العكس، باللغة المستيرية لرفض مهووس، وفي هذه الحالة وتلك لم يكن الغرب معتبراً أبداً بوصفه جذراً، أصلاً جديداً منقطعاً عن الماضي، وله قوانينه الخاصة به ومنطقه الخاص في الهيمنة، بل بوصفه تأمر قوى خفية كانت تستحوذ علينا من جرّاء قوتها المادية، وتهزّنا حتى في أعماق مرتكزاتنا وأسسنا، وتفسخ آدابنا الأخلاقية وتفسد خصالنا من خلال تحويلنا على المدى الطويل إلى حال من العبودية السياسية والثقافية.

صحيح، أنّ مفكّري النهضة المسلمين الأوائل كان لهم فضل الاهتمام الخاص بالمنظومات السياسية والحقوقية في أوروبا. فقد أغرّتهم مفاهيم الحق والحريّات الفردية. وهذا لا يمنع أنّ يفوت مفكّري الساعات الأولى شيء جوهرى، كما يفوت الكثيرين من المفكرين اليوم: هو أنّ هذه المفاهيم الأساسية التي يمتدحون فضائلها لم تكن نتاجات وصفة عجيبة، بل كانت حصيلة مسار تاريخي خارق. وأكاد أقول نتاج تغرّج جذري - وبالتالي لا يمكن، بحكم ذلك، زرعها عبر عالمنا وفيه من دون إخلاء وتهميش تلك القيم السلفية التي تتمسك بها كثيراً، والتي تملأ مدانا العام برمتها.

من جهة ثانية، كانت هذه الأفكار الجديدة، الثورية من عدّة مواجهات، تزيل طبقات أخرى من الواقع، وتكوّن علاقات اجتماعية أخرى غالباً ما كانت معدومة في عالم تقاليدنا المغلق. لأن هذه الوقائع، في المنظار الديني والشمولي لرؤيتنا العالم، كانت - على قدر ما يجري وعيها - إمّا غائبة وإمّا تُعتبر كأنّها تنتمي إلى العَرَض الماديّ للأشياء. واستناداً إلى عبقرية اللغة العربية، قال جاك بريك بحق: «إنّ اللغة العربية التي تقود كل كلمة فيها إلى الله، قد جرى تصوّرها لتخفي الواقع، وليس لاكتناها»^(١). ولقد تعيّن، بالضرورة، على التوترات ما بين اخفاء مناطق جديدة من الواقع وبين المقاومات التراثية التي تستبعدّها أو تكبتها وتطردها من حقل المعرفة، أن تولّد انكسارات وثغرات في الوعي. فبينما كانت الأمور تتبدّل خارجياً، كانت الإسقاطات الذهنية لا تزال تدور حول طرق التمثّل القديمة. والحال، كيف كان يمكن عيش تلك التمرّقات في داخل الوعي؟ سواء شئنا أم أبينا، لا يزال هذا الأمر هو المسألة غير القابلة للحل،

مسألة جميع الاختلالات الذهنية - وما أكثرها - التي تحتاج عالماً. ولا يمكن إبراز هذه المسألة إلا على أيدي القيمين على هذه الحضارات بالذات، فكما لا يستطيع أحد أن ينوب عن أي كان في عملية الموت، كذلك لا يستطيع شخص منحدر من حضارة مختلفة عن الحضارة التي عشنا فيها، أن يختبر وجودياً هذا التمزق داخل نفسه. وبكلام آخر، إنه قدرنا الخاص وغير القابل للتنازل.

لمزيد من التوضيح، سأسمح لنفسي باستطراذ هنا. لنفترض بالتالي أن «أنا» افتراضياً وقع بين فكي كماشية هذا التمزق وكان على مرمى سحرين متناقضين: سحر الرؤية المعجبة بعالم لا يزال مكبلاً بهالة الذاكرة الجماعية، وسحر رؤية لا تقل أثراً عن الأولى، تمارسها عليه جاذبية الحديد والفان، ربما يشعر «الأنا» الافتراضي في المقام الأول أنه مرتين، فيتراجع بالنسبة إلى التبدل الجذري الذي يعاني أثره وبالنسبة إلى مكمن للحنين يكون أشد إيلاماً من العالم الذي يدلّ عليه، تراجعاً تدريجياً وينسحب عن مسرح العالم، زارعاً في كل مكان آثار غياب مُداهم، هاكم تقريباً كيفية تفكّر هذا «الأنا» الافتراضي.

إن الأفكار الجديدة التي تدهمني، الأشياء الجديدة، التي أراها في مواجهتي، ممتدة ومنشورة بكل كثافتها، كلها غريبة عني، ولا أملك لمعرفة الكلمات المناسبة ولا التمثلات الملائمة في فكري، إنها شيء ما لا يقبل الخفض، ينبثق فجأة في حقل معرفتي. صحيح أنني أراها، أستعملها، أعانيها بقدر ما أمارس سلطاني عليها، لكنها تظلّ في مكانٍ ما معلقة، موقوفة في فيض ذاكرتي. لا أستطيع معاودة رسم سفرها التكويني، كما أنني لم أشهد ولادتها، لم أشارك في الأزمات المتتالية التي سبقت تكوينها، ولا في طرق الانتاج التي جعلتها ممكنة. إنها أشياء زائغة لا أستطيع تجنبها، تغير عاداتي وترزعزعها، تفرض عليّ قيوداً لا يمكنني التحرر منها، ومع ذلك، فيها شيء ما يغويني، يجتذبي، يجعلني عاجزاً عن الهرب من مضارها، ويتعين عليّ بالذات أن أبذل قصارى جهدي في سبيل ذلك. وإذا جرت غدجة جميع مقولاتي الذهنية، بحيث إنها تستطيع أن تحجب ما يتكشف حالياً في العالم الذي أعيش فيه، فذلك لأن فكري يعمل بشكل آخر، ويكتشف مناطق وجودية تسير خلافاً لمنطق الأشياء المحيطة بي. إن فكري

يكشف في مكانٍ ما، ما وراء واقع الشيء الذي يدركه، ولكن مع حجب واقعه العيني. فما يحجبه هو الذي يعنيني، يمسي مباشرة، وما يكشفه هو، بالعكس، ما لم يعد موجوداً هنا: لأن هذا الواقع الماورائي الذي يُضفى على الشيء بات من الآن فصاعداً، غائباً من عالمي، نظراً لأن تيار التغيرات الجارف قد محاه.

إن رؤيتي للعالم ترجعني إلى تصوّر أولي تسبح الأشياء، بواسطته، في مُناخ سحري. فالعالم الذي تعيش فيه الأغراض والذي تستمدّ منه وظائفها لا يملك بالنسبة إلى عقلي الكثافة الواقعية نفسها التي يملكها بالنسبة إلى نظرة ذلك الذي تصوّره وجربّه. إنني أعيش في عالم غيبي: فكري يعمل على أفكار ليس لها أي سلطان على الأشياء، ولم تعد تتطابق عضوياً مضامين الداخل وأشكال الخارج. إن الأفكار المُسقطّة تشوّه عند الاحتكاك بالاختلالات التي اجتاحت، جزئياً، بيئتي الطبيعية. و«المسافة» بين ما أسقط وما هو قائم هناك في مواجهتي ليست فقط تفاوتاً تاريخياً، بل هي اختلاف وجودي، إني (انطولوجي). فالأشياء تبدّلت كثيراً وبسرعة أكبر من تطوّر مداركي للواقع. هذه التحولات بدّلت مرجعياتي، شوّشت مساراتي وطرقاتي، لكنها لم تغرّ المناطق العميقة في نفسيّتي. إن نزوعي إلى «أسطرة» الواقع كبير لدرجة أنني أوّمن بالأسس الثابتة لرؤية جوهرية أكثر مما أوّمن بالمسار التاريخي لتطور الأشياء.

في مضمون تمثّلتي المتأخرة عن الانتاجات الصناعية التي تحيط بي من كل الجهات، يندرج فراغ لا يمكنني ملؤه. وهذه الفجوة ليست فقط تغيراً في طريقة الحياة، بل هي أيضاً تبدّل في طريقتي الإدراكية. لقد بقي فكري في منأى عن صدمات التاريخ الكبرى، ولئن كانت الثورات الطارئة في الغرب من جرّاء الانقلابات العلمية/ التقنية قد أحدثت تبدّلاً جذرياً أخضع الوعي، في كل ثورة، لمتطلبات نظرة جديدة، فإن حالتي لم تكن كذلك. فلا يزال وعيي يحيا في زمن الإعجاب بالعالم. صحيح أنني أتلقّى من جرّاء قصفٍ متواصل جاذبية الأشياء الجديدة غير القابلة للانحباس، لكن نسابتها وحفريات ما زالت مجهولة عندي. إن الخطابات الجديدة تجلّدي بسياطها اللاذعة، تطبع آثارها في فكري، تترك فيه علامات لا يمكن محوها، لكنها لا تتوصل قط إلى تحويل محتوى ذاكرتي

التي تعود إلى نسابتها الخاصة بها. أعرف أن الأزمنة تغيرت، أن العالم قد تحوّل وتبدّل، أن التاريخ لا يني يقولُ طرَقاً إنتاجية وعلاقات اجتماعية جديدة، ولكن مضمون هذا التاريخ إنما يتم في غيابي: فأنا لم أعد أشارك في سفر تكوينه لأكون مسؤولاً عن نتائجه. كل ما أعرفه هو أن هذا العالم الجديد له منطقته القاسي، وأنه يفرض عليّ بنيته الجاهزة، وأني لا أستطيع تبديل مجراه ولا أن أقطع بالملقوب الطريق التي قطعها لكي أصل إلى المكان الذي أجُدي فيه في هذه اللحظة بالذات.

فوق ذلك، أين أنا بالمعنى الدقيق؟ إن احداثياتي التاريخية مختلفة تماماً. فأنا لا أحسب بمعايير القرن السادس عشر، السابع عشر أو الثامن عشر، ولا بمقاييس الانقطاعات التي طبعت الانتقال من العصر الوسيط إلى النهضة (الأوروبية)، إلى العصر المأثور (الكلاسيكي) والأزمنة الحديثة. لا فرق عندي بين حقبات التاريخ المتعاقبة. يمكنني القفز من الديك إلى الحمار فوق الأجيال، لأن الانقطاعات النوعية التي دوزنت تاريخ الغرب ليس لها أي تمثّل عيني في فكري. أنا ذو ماضٍ يختلط مع الحاضر - لأنني لا أتوانى عن الاستناد إليه وإحيائه - وذو حاضرٍ هو مستقبلي. صحيح أنني أعاني، منذ مئة عام، انقلابات وتحولات عميقة، أتحدّث عن التاريخ، أفكر فيه، أحاول أن أعرف مكوّناته، أن أرجع إلى المصادر النسبية تماماً لحدائثي الزائفة، ولكن داخل هذه الحقبة القصيرة التي تسجّل دخولي الحافل في عصر يتأرجح نحو آفاق متزايدة السعة باستمرار، ما زلت أعيش نفسياً في تاريخ غيبي حيث يختلط القبل والبعد مع ما وراء التاريخ والتاريخ اللاحق. وبين الاثنين أجُدي في نهاية موقوفة هي دائماً بمثابة بداية.

زدّ على ذلك، أنني عندما أحاول استرجاع شعرائي الكبار - الذي لا قيمة له في نظري كفارسيّ - لا أراهم بمثابة اللوحات الشخصية المتعاقبة التي تزين معرض الزمان، فما يحدّد شاعراً ما في عصر مُعيّن، ليس تأريخ التقاويم ولا مناخ العصر - مثلما يأتي الشاعر المأثور، مثلاً، قبل الحالم (الرومانسي)، ويأتي الرمزي بعد الحالم - ولكن ما يحدّده هو انتماؤه المشترك، المشارك في مركز الذاكرة

اللامرئي، الذي يبدو أنه قد أحاطهم جميعاً بهالة لازمنية، بحيث إنهم صاروا بمثابة الأشعة المضيئة في شمس واحدة. فكل من كبار الشعراء محاور مشارك في حضوره للبعد الزمني الذي يذكّرنا به: أكان الزمن الملحمي الحماسي، الزمن الصوفي/ زمن العودة إلى الذات، أم الزمن المجزأ، زمن التقطيعات المنسكبة مثل بروق الحضور. إنني أحيّا في كوكبة يدور فيها كل شاعر، وفقاً لحركته الإهليلجية الخاصة به، حول رؤيتي الشمولية. لذا فإنني أرى بالخيالات والصور، أعبر بإيقاعات صوتية، أفكر بالشعر، لا أستطيع أن أميزهم من بعضهم البعض وفقاً للحقبات والعصور. صحيح أن الدراسات الانتقادية والتاريخية البادئة منذ مطلع القرن قد أرشدتني إليهم بطريقة ما، وأني توصلت إلى أن ألاحظ لديهم أساليب متباينة وتحولات لغوية وتطورات دلالية، ولكن كل شيء يدعوني إلى الاعتقاد أن جوهر المسألة لا يزال ثابتاً، فالموضوعة الكبرى لـ «الهوية الوطنية» التي كانت تشغل شاعراً كالفردوسي في القرن العاشر، لا تزال راهنة حاضرة لدى مفكر نهاية القرن العشرين، الذي يكافح لإحياء القومية الثقافية في مواجهة هجوم الظلامية الدينية. والمثل التي كان ينهل منها متصوفاً في القرن الرابع عشر، لا تزال تُلهِم - بنسب متفاوتة - النظرة الخائبة التي ألقها على خيانة العالم. يكفي أن يخلع ملك النظام القديم حتى يُماهى فوراً بالطاغية يزيد الذي أراق دماء الامام الحسين بدناءة، أو يكفي أن يجعل خليفة الملك من البلاد مقبرة شهداء، حتى يقارن اليوم بـ زهّاق (ZAHHAK)، السلطان اللعين في كتاب الملوك، الذي كان يطلب أن تُضحى يومياً لأجله أدمغة الأبرياء، حتى يطعم الأفاعي التي كانت قد ولدت في كتفيه. هذا معناه أن البنية الأسطورية للواقع لا تزال كما كانت، وأن الأشخاص يتبدلون حتماً مع الزمان، لكنهم يقومون فيه بالأدوار ذاتها، صراع مانيّ (ثنائي) بين الظلمات والأنوار في أدوار وأكوار تتكرّر بلا انقطاع.

عندما أتواصل مع التيارات الكبرى في ثقافتني، لا أرى فيها قطيعة ولا تغييراً رأسياً ولا انحرافاً عن الأسس الكبرى التي وجّهتها. هناك شيء مستديم على الرغم من المستجدات، شيء ما يخلّق فوق قساوات الزمان. وربما يقال إن الله

يكرّر دون كلل أو ملل المطالب ذاتها، المرّدّة ألف مرة، داخل هذه السلسلة الإبداعية، تبدو الخطوط الفاصلة، التحديدات النوعية كأنها مصطنعة، كأنها مصنوعة من كل شيء، دون علاقة واقعية بالمجرى الأزلي للأحداث. ومع ذلك أعرف، على الرغم من تبعيتي لحالة الأمور هذه، على الرغم من أزلية المسائل المظنون أنها حلّت نهائياً وإلى الأبد، وأعلم أن ثقباً دؤوباً قد اخترقتها وبدلت الخيلة العذراء التي كوّننها عن نفسي، وتلك التي كنت أعزوها إلى واقع العالم وحقيقته. أشعر بكل التباس أن هناك فجوة فاصلة بين ما أورثني أجدادي وما آل إليه العالم الذي صار عالمي، لا شيء داخل ثقافتي كان يحضّرني لهذا الأمر، ولا شيء أيضاً كان يشتر فيه تبدّل هذا النظام. ومع ذلك يبقى هذا الجرح هنا: إنه في داخل فكري وروحي مثلما هو داخل نظام الأشياء الملتبس، الذي فقدت السيطرة عليه منذ أمد بعيد.

في المدرسة تعلّمت كل المواد الماثورة التي تشكّل الحقيقة الفكرية للإنسان الحديث. درست الرياضيات، العلوم، التاريخ، الجغرافيا والآداب، لكن من أين تأتيني كل هذه المعارف المجزأة، المعلّمة خارج سياقها، التي لا علاقة لها، في الظاهر، ولا رابطة عضوية لها مع قواعد تراثي الثقافية؟ وبالتالي من أين جاءني الأنا المفكر (Cogito) الديكارتي، الأنا المتعالي، حركة الوجود الذي يتجسّد في الزمان وهذه الموضوعية المحايدة التي تتباهى بها المنهجية العلمية؟ أما زلتُ في العصر الوسيط؟ هل عرفت العصر الماثور والانقطاعات المعرفية في الأزمنة الحديثة؟ هل تفكّكت بالكبريت المذيب في العصر الانتقادي؟ هل قولبت بقيم الرأسمالية البرجوازية؟ أناضجُ أنا للقيام بالثورة العالمية، على افتراض أنها ممكنة؟ تلك هي الأسئلة التي تمخر ذهني، لأن رابية فكري تبحث عن مقارنات وتطابقات بين الزمان والمكان. ومهما أفعل، فأنا أطور في عالم مقارن؛ لم أعد أحيا في عالم مُغلَق يكفي نفسه بنفسه؛ والآخر يناشدني ولو من خلال الآثار التي يجعلني أعانيها على هواه، إنني أحكم بمقارنات، باستقصاءات وتماهيات متسلسلة. إنني أستمتع بقوالب غموضية تأتيني من مُتحف التاريخ. وأسعى لتطبيقها على قدرتي بالذات. وفوق ذلك، أسعى لمعاودة بناء ماضي وفقاً

للمعايير المفروضة رسمياً عليّ. وهذا الاهتمام يجعلني أرى نفسي مجدداً من خلال نظارتي الآخر، قويّ جداً، مترسّخٌ بشدة في طرق أحكامي المكتسبة، لدرجة أنني أعاد تقويم كل ماضيٍّ في ضوء المعايير التي تأتيني من الخارج، عندما أحاول إعادة رسم الخطوط العريضة للفترات العصبية في تاريخي الحديث جداً، مثلاً الانتقال من الحركة الدستورية (١٩٠٥ - ١٩١١) إلى قيام الدولة / الأمة (١٩٢٦)، إنما أدخل فيها مفاهيم لا تتوافق إلا تقريباً مع المسار الفريد الذي أذكره، وعندما أتكلّم على دور البرجوازية، أنسى أن هذا المفهوم له مضامين دقيقة في ثقافة خاصة، وأن كوني أستعمل هذا المصطلح لا يبيّز لي أن أتخيّل وجود قاعدته الاجتماعية. زدّ على ذلك أن معظم الأفكار التي أفترضها ليس لها غالباً أي مقابل اجتماعي في الوقائع، وأن المبالغات الوافرة للخطابات الجوفاء التي تدوخي، صالحة فقط لتبرير نواقصي المفهومية.

إنّ فهم تاريخي جرى تزويره منذ أصله: فهو مدفوع بمعايير لا تقترب من مشاكلي الحقيقية إلا بطريقة متراخية جداً. فأينما نظرت في نفسي، لا أرى سوى التكرار المضجر للموضوعات الأبدية ذاتها، للأزمات ذاتها، للشعارات العقيمة نفسها، التي تتحرك بلا انقطاع مثل الكتبان المتهيلة فوق رمل الصحراء عينه، ودائماً تظهر الأجوبة ذاتها للمسائل نفسها. كما لو أنني مهما نأيتُ، أصل إلى نقطة انطلاقي ذاتها.

لكن، أية علاقة قائمة بين التكنولوجيا الجاحمة لعالم لا يوقفه شيء وبين الرؤية السلبية / السكونية لأساتذتي الفكريين؟ ما العلاقة بين هيغل وابن عربي، بين كانط والسُّهروردي؟ ما العلاقة بين هذه الدعوة إلى الأسفار الأكثر امتناعاً، وهذا الانكماش على الذات الذي لا يرى من العالم إلّا ما يريد أن يراه فقط: هالة مأهولة بسحر أوهام رفيعة! وبينما ينصحني أساتذتي الفكريون بأن أتغيّب عن هذا العالم، هذه الدنيا، لأكون أكثر حضوراً في العالم الآخر، ينصحني أساتذتي الحديثون، خلافاً لذلك، بأن لا أقبل شيئاً لا يُتحقّق منه تجريبياً، وأن أكون حذراً من الاعتقادات المسبقة ومن الأحلام التي تتعامل مع رغباتها كوقائع وحقائق. فالفصام ليس فقط وضعاً يشترطني على الرغم مني، فهو مكوّن

ومُصان بشبكة كاملة من العلامات التي تردني من الحياة، من المدرسة، من الشارع، من السياسة، ومن الحماقة عميقة الغور التي تصارعني طوال اليوم، تندرج الكذبة في قاطرة أفكار، في اختلالات مفاهيمي، في سُدى أفعالي وتلاحقني في آخر معاقل، وتغدو بكيفية ما طبيعتي الثانية. إنني منحرف عن ذاتي: أي منحرف عما يُظن أنني أجسده ويناشدني من كل الجهات، إنني بين فكي كماشة الأفكار التي تتبخر لانعدام المكان المناسب وبسبب المواقف العتيقة، التي يشتد عودها لانعدام التكيف، وتغدو الكذبة طريقة - وجود - في - العالم، أفضل أمامها باستمرار، وأنضاء في مواجهتها. عبثاً اخترعت الأعذار، وبحث عن كبوش محرقة: رأسمالية متعددة الجنسية، آثار الغزو الاستعماري، الصهيونية، الامبريالية، وكل «المنسوبات» التي ستراد؛ فكل هذه المفردات ما هي إلا منبهات ومخدرات تعزيني؛ إنها منبهات تزيدني غوصاً في نومي المعتقدي.

غير أنني أعرف بشكل غامض أنني إذا قُيِّض لي الانعتاق من وصاية الأصنام، التي لا تزال تمسك بي، فلا بد لي من الاقتدار على تمزيق حجاب الأوهام، التي تشكّل شاشة بين توهماتي وحقيقة العالم. وهذا يتطلب جرأة القفز وقطع جبل صرّتي. فلا مناص لي، مهما كلف الأمر، من القيام بهذه القفزة مخاطراً بالسقوط في الأبدية، كما يقول الشاعر. لا بد لي من الاقتدار على الانعتاق من الحلقة المفرغة للتبسيطات والتفسيرات السطحية جداً. ولئن تعيّن على الأمور أن تتبدّل في مكان ما، فلا بد من أن يتم ذلك داخل الرؤوس، في مستوى الأسس، وحتى في مستوى الوعي الأكثر حدة والأشدّ تعاسةً. ولن تتبدّل الرؤوس بتبديل البنى التحتية (الخفائض)، بل بقلب الرؤوس ذاتها. إنني مندهش من الاستنتاج أن مشاكلي لم تتبدّل منذ أن أخذت علماً بتأخري. فأنا أكرّر دائماً الموضوعات الوجدانية ذاتها، وأبحث بلا توانٍ عن كبوش المحرقة عيناها، وأتخفّى دائماً وراء الحواجز نفسها، وفي مكان ما يعمل فكري المخصّي من جرّاء العجز المزمن، ويدور حول رواسب (كليشيات) مستنفدة حتى الوريد. صحيح، أن أبطال الاحتدام (الدراما) يتبدّلون مع الوقت، لكن الفن

الاحتدامي ذاته يظل كما هو. إنني دائماً ضحية الآخر. برأقي لا تقبل الدنس، وكل ما يحدث لي تعاسة يمكن عزوها للقوى الخفية التي لا أملك السيطرة عليها، لأنني في الحقيقة ضحية قَدَرٍ قديم كالعالم، وهذا القدر يظهر دائماً بأقنعة جديدة: فهو الاسكندر المقدوني تارةً، والعربي البدوي تارةً، وتارة أخرى جنكيز فارس السهوب، وطوراً هو البريطاني الماكر، والأميركي البشع، والدب السوفيّاتي، والله يعلم من سيأتي بعده.

مع ذلك، أعطوني أحداث الأدوات، البترودولارات الوفيرة، الأفكار الأكثر تسامحاً في العصر الديمقراطي، وسأقيم لكم في مدى عدة أشهر الجهاز الأكثر قمعاً في العالم: فردوس الجحيم. ولم تنقصني الوسائل! فقد ورثت المليارات، وبالعملات الصعبة، التي لم أعرف بكل أسف كيف أستفيد منها. لأنني، كما ترون، محاصر في مكانٍ ما، وحصاري عتيق كنفي، مكابر شرس مثل أفكاري الجامدة، ومَرَضِيّ مثل وساوسي. وعُصَابِي كديني المُربك الذي لا أعرف ماذا أصنع به، فأنا أديره وأعاود تدويره في كل الاتجاهات، ولكنني لا أعلم أين أضعه. وبعد، فلنكن صريحين: إن فكري شمولي، لا يهتم بالخاص، بالواقعي، فالتفاصيل ترهقه، والدقة تضجره، والنقد يثبط عزيمته. أنا كسول مثل ريعي، مكتفٍ بموارده العجاف، يدير ظهره لكل مغامرة خطيرة يمكنها أن تزعج خاطره وسكونه. أنا أحب الأفكار المدوّرة والصريحة التي تفسّر لي بكل جلاء من أين أتيت وإلى أين أذهب ولماذا أنا سيّد مخلوقات الله، ولماذا كُلفت بمستودع كل الأسماء الحسنى التي تجعل مني إنساناً متفوقاً بالقوة، وكيف سأموت - إن كان بمستطاع نفسي أن تزول حقاً - وكيف سأولد لاحقاً عندما سأغدو ملاكاً بين السعداء. وفوق ذلك، أنا أعبد تاريخ الملائكة، وأصادفهم عند نهاية كل حقل، يكفيني أن أقرأ أقاصيص رؤى متصوّفي وأن أحلّق فوراً.

وماذا يهمني أن أكون مادوياً، ماركسياً، ملحداً وحتى كافراً، فعندما أقطع بشفرة الجدلية الماركسية الحادّة رأس النّامين عليّ الأكثر سفاهةً، سأدخل بكل تهذيب إلى بيتي، وأفتح ديوان حافظ الإلهي أو مثنوي الرومي، وأنتشي بكلمات وخيالات، وأغدو حاضراً الآن للمشاركة في مأدبة الملائكة، وللتمتع بلذة

العربدات الصوفية. وحتى اللحاق، لم لا؟، بالعصافير الذاهبة إلى الحج بحثاً عن طائر السيمورغ الخرافي، لأنني في الحقيقة أتمتع بجزءٍ ثملٍ من التآرجح بين الملاك ونقيضه، ولا أكتفي بكون هذه الحالة لا تدهشني، كما أنني لا أكتفي أيضاً بعدم الانتباه لتناقضاتي، بل أنني فوق ذلك أدور عيني وأغمضهما عندما تنبهي بعض العقول النيرة. إنني أعيش تناقضاتي بكل براءة: فأنا لست مسؤولاً عنها قط، كما أنني لست مسؤولاً عن هذه الثورة اللعينة التي طردتني من بلادي. فأنا لم أشارك فيها، لقد كانت مؤامرة قام بها الامبرياليون الغيورون من رؤيتنا وقد أصبحنا يابانيين الشرق الأوسط. ثم ماذا؟ كل شيء مكتوب في القرآن، والتاريخ، إن كان له معنى ما، ما هو إلا تفسيره الباهت، كل شيء مكتوب في رؤوسنا والباقي يُستخلص منها حتماً بطريقة الاستنتاج الرياضي.

II

«إجازات» في التاريخ

فلنحاول مرة واحدة أن نكون جازمين! ماذا جرى بالضبط منذ أربعة قرون؟ ماذا دار منذ اكتشاف القوانين الفلكية الكبرى؟ إن المراحل الأخيرة من كاتدرائياتنا الفكرية تتطابق بكل طرافة مع ظهور الذاتية الديكارتية. ونكاد نُغرى بالقول مع هيجل إن روح العالم تتحرك بعيداً عن المدارات الثقافية المكتملة لتقيم في مكانٍ ما من الغرب. لماذا؟ لا أعلم شيئاً عن ذلك. كان ثمة كثير من التفسيرات العالمة في هذا الموضوع، كثير من التأويلات الجلييلة التي سأعفي القارئ منها. فلنبقَ عند الوقائع، فمذ أكثر من ثلاثة قرون، كنا نحن المنحدرين من حضارات آسيوية وأفريقية في «إجازات» داخل التاريخ. (هناك بلا شك استثناءات). فحين وضعنا آخر حجر في كاتدرائياتنا العقائدية ذات الأسلوب الغوطي، رحنا نتأملها. ولقد أحسنّا بلورة الزمان في مكان، لدرجة أننا تمكنا من أن نجيز لأنفسنا العيش خارج الزمان، مكتوفي الأيدي، بعيداً عن كل هموم التساؤل.

إن كل العمارات الخيالية، كل العقائد الغيبية، الإيرانية، الهندية، الصينية، كانت مكتملة؛ وكانت كل المعاريات الدينية الكبرى مشيدة في معابد للتأمل، تتحدّى قوانين الجاذبية. سكارى بالله حتى الفناء ونسيان الذات، جعلنا من الأرض، من الإنسان والأعمال الفنية علامات مجده التي لا توصف. جميع

صفاته، أسمائه، إشراقاته، تقلباته، جرى فرزها وتصنيفها بكل عناية، ثم جرى تجميعها في قوانين ثابتة، لقد فرزنا كل تحيّلاته، كشفنا كل أسرارها، فككنا القواعد السرية للغة العويصة. لقد تعلّمنا جيداً العلم الإلهي، بحيث لم يبقَ شيء - تماماً أي شيء - خارج فضولنا الغيبي. وسرعان ما شعرنا في آن، أننا مرتاحون تماماً في متاهة العقائد الكونية الخالدة، وفي خبايا منزلنا الأكثر تعرجاً، لقد ربّنا الطقوسية الدقيقة لحركاتنا اليومية وفقاً لميقات التقلّبات الإلهية. كل فعل تحوّل إلى عبادة، كل خطاب إلى تكريس لكلامه. لقد دمجناه دمجاً تاماً في طرق معيشتنا، لدرجة أننا لم نعد نتوصّل إلى تمييز مجالنا الخاص من مجال الألوهة. وهكذا تغدو الألوهة ضحية عناياتنا، بقدر ما نظلّ مأخوذين / واقعين في حبال حضورها الكلي.

وبما أننا أكملنا عالمنا، فإننا انسحبنا منه لكي نكرّس أنفسنا كلياً لأعمال التقى والورع. وبينما كنا نتأمل منجزاتنا وأعمالنا، كان شياطين صغار من الغرب يستعدون لتدمير عالمنا. إنهم مقاولون متوحشون يديرون ظهورهم تماماً لكاتدرائياتهم الخاصة، ويتحدثون عن أمور عجبية: ثورة كوبرنيك، الانسانية، فصل الإيمان عن المعرفة، الإنسان كذات / فاعل يكفي نفسه بنفسه، الخ. كلها أشياء تقشّر لها أبداننا لو كنا قادرين على إدراك عواقبها الوخيمة. ولكن لم نكن لحسن حظنا من المتواطئين معهم، ثم راح هؤلاء الكفرة يصنعون أغراضاً مذهشة: مدافع، بنادق، ثم راحوا يعبرون بحارنا بسفنهم المتقنة ويقومون بزيارتنا، استقبلناهم بذرعان مفتوحة، إنه واجب الضيافة. أعجبنا بالعابهم الآلية، باكتشافاتهم التقنية، بمهارة سحرهم وشعوذتهم الشيطانية. بكثير من اللطافة، بلا شك، تجاه تلك الألعاب. في نظرنا نحن المسلمين، الذين ننعم بآخر وحي في الأزمنة النبوية، لم يكن هؤلاء البرابرة / المتوحشون سوى كفّار. وبشبهة وحشية يبدأون بتعلّم لغاتنا، ودراسة عاداتنا، وممارسة الإناسة - هذا ما سيقال لنا لاحقاً. لقد كنا في نظرهم مواضيع مهمة تماماً مثل الأغراض التي كانوا يرونها بنظاراتهم وأدواتهم.

ولا يخطر على بالنا أبداً أننا نستطيع أن نفعل مثلهم. أن نفعل ماذا؟ نشغل

أنفسنا بمشاغل فارغة كهذه؟ نجدد؟ نقطع مع التراث المقدس؟ ذلك هو منتهى الكفر. وبعد كل حساب، لقد أكملنا عملنا، وكنا منذ أمد بعيد في إجازات وعطلات. كنا نعلم تماماً من أين أتينا، وإلى أين نذهب وأين نقيم بين بداية الأزمان ونهايتها. زد على ذلك أن الرغبة في مهاجمة الرب من خلال تدخلنا بلا حشمة في المسار الطبيعي للأمور والأشياء، أدت إلى انفلات قوى الشر. مع ذلك، كان حكيم صيني قد نبهنا إلى هذا الخطر، منذ ٢٥ قرناً تقريباً.

«عندما عبر دزي غونغ المنطقة الواقعة شمال نهر هان، رأى كهلاً كان يعمل في حقل خضار. كان قد حفر بنفسه أقبية للري. كان ينزل بنفسه إلى البئر ويصعد منها حاملاً بين ذراعيه وعاءً مليئاً بالماء، كان يفرغه في الأقبية. ومع بذله قصارى جهده لم يكن يتوصل إلا لأشياء طفيفة.

«قال دزي غونغ: هناك وسيلة لريّ مئة قناة/ ثلم في يوم واحد. فبقليل من الجهد نتوصل إلى نتائج كبيرة. ألا تريد أن تستعملها؟ انتصب البستاني، نظر إليه وقال: ما هي هذه الوسيلة؟

«قال دزي غونغ: نأخذ مخلأ خشبياً، ثقيلاً من الوراء، خفيفاً من الأمام. على هذا النحو يمكن استخراج الماء بوفرة. هذا يسمى بثراً بسلاسل.

«صعد الغضب إلى وجه الكهل، الذي قال وهو يضحك: سمعت معلّمي يقول: ذلك الذي يستخدم آلات ينقذ ألياً كل أعماله؛ وذلك الذي ينفذ أعماله ألياً يجعل قلبه آلة. والحال، إن ذلك الذي يحمل قلب آلة في صدره يفقد براءته. ومن يفقد براءته الطاهرة يغدو متشككاً في حركات روحه. أنا لا أجهل هذه الأمور - لكنني أخجل من استعمالها»^(١).

ما قاله هذا الحكيم الصيني منذ نحو ٢٥ قرناً، يمكن أن يتبناه بكل سهولة، هندوكي أو مسلم، وربما لا يصوغه المسلم بعبارات واضحة كهذه، لكن الفكرة تظل حاضرة في هذا الخوف الوسواسي الذي يملكه تجاه التجديد مهما كان نوعه وفي أي مجال: سواء في مجال الفكر أم في مجال التقنية، وعندما يخاف المرء من الإبداع ويظل سلبياً تجاه الآخرين، يترك الأمور تجرفه. هذا ما حدث حتماً،

ثم جاء اليوم الذي رأينا فيه أننا وقعنا في فخ، أننا لم نعد نمسك بمقاليد مصيرنا، أن السكة الحديد تعبر أراضينا، أن الأعمدة السلكية تملأ براريننا، أن البواخر البخارية ترسو في موانينا. كان موقفنا موقف المتراجع / المتقاعد: بما أننا كنا نتأمل آثارنا، نستمتع بلا تأنيب بإجازاتنا وعطلاتنا المزمنة، وهنا نتلهى سلبياً في تفحص هؤلاء التجار، هؤلاء الإرسالين، هذه الحملات العسكرية التي كانت تعمل حولنا. وكان موقفنا مشابهاً تقريباً لموقف رئيس الحكومة الفارسي، ذلك الذي سجل هذه الملاحظة التاريخية، عندما دُعي إلى مجلس الممثلين لاستجوابه حول وجود الحلفاء في البلد في خلال الحرب العالمية الثانية: «إنهم يأتون ويرحلون، وليس لديهم ما يفعلونه بنا».

كنا مقتنعين جداً بعجزنا لدرجة أننا انتهينا إلى وصف هؤلاء الشياطين الأجانب بالصفات السحرية ذاتها، التي كنا نعزوها في الماضي إلى الآلهة ذاتها. كنا نقول: هذه ضربة الانكليز! هذه ضربة الروس! إنها مؤامرة الأجهزة السرية البريطانية، الأميركية، الخ. ولئن كان الشاه قد رحل، فلأن «هؤلاء» قد قرروا ذلك على هذا النحو. وإذا كان الإمام قد حل محله، فلان «هؤلاء» قد أرادوا الأمر هكذا، وإذا خرجت أنا إلى الشوارع صارخاً كمهووس، فذلك لأنني منوم من قبل الاذاعة البريطانية (BBC) ومستخدم من جانب وكالة المخابرات المركزية (CIA). كان العالم بأسره يتأمر علينا من خلال استغلالنا، وزعزعتنا وتفكيكتنا. وكنا ونحن ننزف من جرأ كثير من الخناجر المغروسة في ظهرنا، نبحت بكل يأس عن استخراج دبوسنا من اللعبة. ذلك لأننا كنا قد أكملنا عملنا، ورفعنا أنصابنا الجليلة، واستهلكنا حتى الرماد حماسات ونيران إيماننا، نحن أبناء السقطة الأبرياء!

ولما تعبنا من الحرب، رحنا نستهلك الأفكار، الأغراض والمناهج التي لا نعرف أولاتها قط. وأدركنا أن في عالم تهيمن عليه قوة التقنية، صارت معارفنا العتيقة، على منوال وعاء البستاني الصيني البسيط، بالية جداً وبشكل متعظم، بينما كانت أفكارنا تسقط في النسيان. وفي سبيل المزيد من الوهم كنا على اقتناع ساذج بأن في امكاننا أن نختار وأن نؤثر في طبيعة الأشياء التي كنا نتلقاها؛

فصل الحبة الجيدة من الزؤان، اختيار التقنية، الأسلحة النارية، ومواجهة بطولية نهائية مع الأفكار التخريبية، العلمانية التي كانت تكمن وراءها. وفي نهاية المطاف يبقى المرء مسلماً أصلياً، أصولياً، خاضعاً كلياً لحضور الشريعة الكلي، ويكون في الوقت نفسه رأسالياً مقاولاً، تقنوقراطياً فعالاً، ولم لا؟، قومياً متحمساً. ومن ثم، قبل أن يتوافر لدينا الوقت للرد الفعلي ولوعى ما يحدث حقاً، كنا عملياً على الضفة الأخرى للنهر: بين ما كان يجري في العالم وما كان يدور في رؤوسنا، كانت هوةٌ سحيقة قد انحفرت. وفجأة كانت الاجازات الرعوية قد شارفت على نهايتها، لأن العالم، في خلال ذلك، كان قد تبدّل. وكان التاريخ قد تقدم، وكانت بيئتنا المألوفة قد انهارت، ونحن، كنا، قد رمينا أنفسنا خارج أرض البشر: فلا نحن في أرض الأجداد، ولا في أرض السادة الجدد. الغائبون مخطئون دائماً! أجل، بكل أسف! لقد كنا مخطئين، لأننا غبنا عن موعدنا مع التاريخ.

III

بعض أمثلة: الصين والعالم الإسلامي

عندما رسي المبشرون الأوائل في الصين، في عهد سلالة آل مينغ (١٣٦٨ - ١٦٤٤)، حاولوا أولاً أن يقوموا بمشروع غواية كبرى، كيف يدخلون الصينيين في ديانتهم دون أن يصدموهم معتقداتهم كثيراً؟ إن المبشرين، وهم تكنوقراطيون قبل التسمية، طبقوا استراتيجية غزو لكي يجتذبوا أرواحهم وعقولهم، لأن الاهتمام، كما سنرى لاحقاً في كل البلدان المستعمرة، هو مرحلة مهمة للاحتلال. في البداية، انسحر الصينيون بالعلم والتقنية اللذين أدخلهما الإيطاليون مثل روجيري (Ruggieri) ورشي (Ricci)، اللذين أقاما سنة ١٥٨٣ في جنوب الصين. فوق ذلك، يلفتنا جاك جرنه (Gernet) إلى أن: «رشي اعترف بأنه مدين، في جزء كبير من شهرته لدى المتعلمين، لخريطته عن العالم ولدروسه العلمية (رياضيات وعلم فلك). فالعلوم - وكذلك التقنيات - لم تجتذب عدداً كبيراً من المتعلمين نحو المبشرين وحسب، بل عززت امتيازهم وجمهورهم، وهذه نقطة يتواضع عليها أصدقاء المبشرين وأعدائهم: إن النجاح الأساسي لبرابرة الغرب صادر عن مناهجهم التقويمية، وعن كونهم قادرين على إصلاح التقويم بفضل أدواتهم الفلكية، وعن كونهم ساعدوا في صنع المدافع [...] فارتأي أنهم كانوا مفيدين للدولة وللدفاع عن الامبراطورية»^(١).

إلا أن رد الفعل لن يتأخر، فسرعان ما لاحظ الصينيون في ذلك المشروع

المغربي، مكرراً وغشاً ونوايا سيئة. «حين ساعدوا على صنع المدافع، جعلونا نستمتع بحماسهم. وحين وصلوا للاستسقاء، جعلونا نعتقد بأنهم يملكون وسائل سحرية، وأن ساعاتهم الجدارية، ومفاتيحهم الوترية، ونظاراتهم المقرّبة تدهش وتسحر من حيث المهارة التي تشهد لها. جعلوا أنفسهم شركاء بفضل الذهب الوفير، أغووا الناس بتهذيبهم الشديد»^(٤)، هذا ما سيقوله صيني مهتم بفضح مؤامرات اليسوعيين الميكافيلية. لأن وراء جميع تلك الأعمال الآلية، هناك القصد الصريح بخداع الصينيين وتحويلهم عن تراثهم. من هنا توبيخات الصينيين الانتقادية التي ترى في أعمال المرسلين المبشرين مؤامرة رباعية، قوامها: إغراء الطيبين بالمال، إدهاش الأذكياء بالمعارف العلمية، خداع الأخلاقيين بالتعاليم الأخلاقية، وجعل عامة الناس يتعصبون خوفاً من النار. غير أن موقف الصينيين الانتقادي سيظل مزدوج القيمة، وهذه الازدواجية سنجدّها مجدداً على مدى التاريخ لدى جميع الشعوب الشرقية، التي انفنت بقوة الغرب التقنية ولم تتوصل قط إلى اكتناه الاقترانات العضوية التي تربط بين العلم والدين.

والحال، فإن الحل الأبسط بالنسبة إلى الصينيين، وكذلك بالنسبة إلى معظم الشعوب الشرقية الأخرى، سيكمن في التفريق بين التقنية والعقيدة الغيبية التي تساندها، وفي قبول الأولى كونها مفيدة وفعالة، ورفض الأخرى كونها مشؤومة ومناقضة لتراث الأجداد. هناك من الجانب الصيني ارتياب واشتباه بأن المبشرين هم إلى حد ما ماديون، إذ «من المحتمل، كما يتّبعنا إلى ذلك كاتب خبير، بحجة تبجيل رب السماء»^(٥)، الإعلان إن السماء والأرض محرومتان من العقل، وأن الشمس والقمر والكواكب أشياء خام، وأن آلهة الجبال والأنهار، آلهة التربة وآلهة الحصاد شياطين وأبالسة، فلا تكون هناك ضرورة للتضحية في سبيل الأجداد»^(٦).

إن ما يستنكره هذا الصيني بكل حصافة وببشّر به اليسوعيون - الذين باتوا علمانيين في تفويضهم للطبيعة - ليس شيئاً آخر سوى هذه الظاهرة الخاصة، التي أنجبت العلم الغربي؛ نعي إزالة الرموز وكشفها، أو كما يقول المفكرون الألمان بطلان الاندهاش بالعالم (die Entzauberung). لقد كانت هذه الظاهرة، كما

نعلم، إحدى الركائز الأساسية التي صارت ممكنة، بالانطلاق منها، فكرة طبيعة مدنّسة، قابلة للتكميم، قابلة للتحديد رياضياً، بالذات. إن كون العالم من صنع إله مهندس، أجاز ميلاد المفهوم الرياضي للطبيعة، وانطلاقاً من ذلك، سمح بولادة العلم الحديث. فالعلم الغربي الماثور (الكلاسيكي)، مهما قيل فيه، كان علمنة للاهوت المسيحي، وهو فضلاً عن ذلك مدين لعدد من المكاسب: التفريق بين الروحي والزمني، بين اللاهوت والفلسفة، بين فكرة الإله الشخصي المتعالي والذاتية التي تناسبه؛ وأخيراً، تمييز واقعة كبرى أدخلت التاريخ في صميم الخلق: التجسيد. هذه كلها أشياء لا يمكنها إلا أن تصدم ذوق الصيني، الذي يعتبر أن السماء ملتبسة مع نظام الطبيعة اللاشخصي، وأن الامبراطور كان ابن السماء، المفوض من قبلها للحفاظ على نظام العالم المتناغم. كانت ثنائية الجسد والروح غير قابلة للفهم، وأخيراً كان التجسيد مفهوماً ممتنعاً تماماً. «كيف يمكن إطلاق تسمية رب السماء على بربري معذب»^(٣)، هكذا كان يضيف نص في خلال محاكمة نانكين سنة ١٦١٦ - ١٦١٧، التي دارت ضد جمعية المسيحيين المهترقة.

والحال، إن اكتساب تقنية دون امتلاك، أو دون فهم، الخلفيات الغيبية التي تشكّل مفصلها، هو وهم محض. وهذا الوهم سيغذي كل المحاولات التحديثية الجارية منذ أكثر من قرن في الحضارات غير الغربية، باستثناء اليابان. أما حالة العالم الاسلامي فهي أيضاً أكثر كارثية.

إن تاريخ علاقات الإسلام مع بلاد المسيحية هو في آن تاريخ الانكماش والانحسار. من المفيد أن نلاحظ أن العالم الاسلامي، الذي كان في الماضي شديد التأثر بالفكر اليوناني - يكفينا التفكير في نقل النصوص الفلسفية اليونانية إلى العربية -، قد توصل في آخر المطاف إلى رفض الغرب ليتجمّد في مواقف متحجرة أكثر فأكثر. وهذا يعود إلى عدة وقائع. أولها، هذه المعاندة تجاه الغرب ذات الأصل الثيولوجي. ففي ذهن المسلم التبس الغرب دائماً مع السدين المسيحي، وإن اقتناع المسلم الرسالي القائل إن دينه كان آخر وحي، وإن نبيّه محمداً هو خاتم النبوة، صوّر له في الواقع أن المسيحية باتت ديناً متجاوزاً، حتى

لا نقول مهجوراً ومماتاً، وبالتالي صوّر له أن المسلم كان متفوقاً على المسيحي في كل نقطة. ولكن عندما استثار توسع الغرب العسكري والهزائم النكراء لجيوش الإسلام، غمطاً جديداً من العلاقة وفقاً لطبيعة الأمور، وتعين على الإسلام (من خلال الامبراطورية العثمانية) أن يرجع إلى الواقع القاسي، واقع تفوق الغرب التقني / العسكري، كان موقف المسلمين قد أصبح صديئاً جداً، عاجزاً عن التكيف مع هذا الوضع الجديد. وهذا على قدر ما كان فتح الاسلام عظيماً وكبيراً في القرنين السابع والثامن. ففي الواقع، كان المسلمون قد فتحوا، بفضل الجهاد وفي زمن قصير جداً، أراض واسعة يعود بعضها إلى العالم المسيحي ذاته. ولئن كان الغرب المسيحي قد ردّ على الجهاد الأول للإسلام، باسترداد شبه جزيرة آيبريا وأراض مسيحية أخرى منذ القرن الحادي عشر، فإن الفتح الثاني للإسلام، لا سيما الفتح الذي قامت به الامبراطورية العثمانية - والذي بلغ ذروته في عهد سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦)، قد اصطدم هذه المرة بتغير نوعي طرأ على المدار الثقافي الأوروبي، نعني بداية العصر العلمي / التقني، الذي ظل الإسلام بعيداً عنه، بسبب انغلاقه العقلي والفكري وقوة تحجّره بالضبط.

إن الأحداث الثلاثة الكبرى الطارئة في أوروبا: توسع الطرق البحرية، النهضة والإصلاح، ظلت غريبة تماماً عن العالم الاسلامي، زد على ذلك أن هذه الظواهر الثلاثة قد صنعت، بكيفية ما، حادثة الأزمنة الجديدة. إن النهضة وما تلاها من حب استطلاع، فتحا الغرب على غزو ثقافات أخرى، محوِّلاً بذلك عالمه المغلق إلى كون لامتناه. إن الترييض الغاليلي للطبيعة أتاح المجال أمام ظهور علوم الطبيعة؛ وبالنسبة، أفسح في المجال أمام اتقان الأسلحة الحربية والتطور البحري، في حين حرر الإصلاح المجتمعات الوسيطة من نير الكنيسة، وانكب على توطيد السلطة المركزية: أي اقامة المطلقية. من جهة ثانية، كما يعلمنا فرنان برودل عن الملاحه، لم تكن التقنيات المستعملة ظواهر معزولة، بل كانت اشتراكات وتجمعات لتقنيات، مثل «مقود الحاملة، زائد هيكل السفينة المبني بتأثير متراكب، زائد المدفعية على متن السفن، زائد الملاحه

في أعالي البحار»^(٨). ولئن كان في امكان بعض التقنيات أن تستبدل وتنتشر بسهولة، فإن اجتماع التقنيات، الناجم عن رؤية علمية معينة للعالم والمتعلق بإدراك آخر للواقع، لا يمكنه في المقابل أن ينقل عبر عوالم لم تظهر فيها هذه التغيّرات النوعية، وبالتالي لم تكتسب فيها تمثلاً واستيعاباً في الفكر، هذا ما حدث للعالم الاسلامي.

كانت عواقب هذا التطور الذي لا سابق له، الصدمات الثلاث التي أصابت الامبراطورية العثمانية. وفي رأي برنارد لويس، هذه الصدمات الثلاث هي هزيمة العثمانيين أمام روسيا سنة ١٧٧٤، التي أدت إلى معاهدة كوشك كيناركا (Küçük Kaynarca)، التي تمنح للروس امتيازات اقليمية، سياسية وتجارية؛ ضم روسيا لمناطق (Crimée) سنة ١٧٨٣؛ والأهم من ذلك كله، من حيث مداها الثقافي، حملة بونابرت على مصر سنة ١٧٩٨^(٩). «كان لهذا الحدث الثالث عاقبة وخيمة. فقد أفسح المجال أمام انتشار المبادئ الجديدة للثورة الفرنسية في الأراضي الاسلامية، وهذه أول حركة فكرية أوروبية تجتاز الحاجز الذي كان قائماً بين عالم الكفّار وعالم الإسلام، وتؤثر تأثيراً عميقاً في فكر المسلمين وسلوكهم [...]». كان ذلك أول انقلاب اجتماعي وفكري في أوروبا، يعتمد على فكريّة (ايديولوجيا) معبر عنها بعبارات غير دينية. لم يكن للحركات الأوروبية السابقة مثل: النهضة، الإصلاح، الثورة العلمية أو ثورة الأنوار، أي أثر في العالم الاسلامي، الذي لم يكن قد ألمّ بها أو حتى لحظها. وربما يكون السبب الرئيس لذلك كونها حركات مسيحية نسبياً في طريقة تعبيرها، وبالتالي كانت دفاعات الاسلام الفكرية تحظر عليها أي دخول [...]». حتى أنها كانت تأمل أن تجدد، في هذا النوع من الفكريّة العلمانية، أو بالأحرى المحايدة دينياً، طلسماً يمكنه أن يمدها بأسرار العلم والتقدم الغربي، دون أن تعرّض للخطر طريقة حياتها وتراثها»^(١٠).

لكن مهما تكن الزاوية التي يراد النظر منها إلى علاقات الغرب بالعالم الاسلامي، فإن هذه العلاقات تكشف واقعة لا يمكن انكارها: معارف الغربيين المتقنة أكثر فأكثر، المتزايدة الانتشار لدى المسلمين (ليس بالضرورة في

عقليتهم ومسلكتهم النفسي)، والجهل حتى لا نقل بلادة المسلمين المغطاة بالأحكام المسبقة تجاه الغربيين، ربما سيدلنا مثلاً على هذا الاختلال في توازن المصالح والاهتمامات المتبادلة. في نهاية القرن ١٨، كان الطالب الغربي يملك عدة وفيرة عن العالم الاسلامي: «نحو ٧٠ كتاباً في النحو العربي جرى طبعها في أوروبا، و ١٠ كتب عن الفارسية و ١٥ كتاباً عن التركية، وهناك ١٠ معاجم عربية، ٤ معاجم فارسية، و ٧ معاجم تركية»^(١١). وماذا كان الوضع من الجهة الأخرى؟ لا شيء في العربية، لا شيء أيضاً في الفارسية والتركية، ظهرت المعاجم الأولى في القرن التاسع عشر. «إن المعجم العربي الأول مع لغة أوروبية، وضعه مواطن ناطق بالعربية، ونشر سنة ١٨٢٨. إنه عمل مسيحي (قبطي مصري)، راجعه وزاد عليه مستشرق فرنسي، وهو كما يقول المؤلف في المقدمة، مخصص لجمهور غربي أكثر مما هو موجه لجمهور عربي»^(١٢).

سيسير هذا الوضع متفاقماً حتى أيامنا، على الرغم من الجهود التي لا تزال غير كافية في كل المجالات، فالأعمال الغربية الأدبية والفكرية الكبرى لا تزال غير متوافرة في لغات الإسلام. ولئن كان بعضها قد ترجم، فإن ترجماتها تمت بطريقة ناقصة ومشوهة، بحيث إنها صارت هي أيضاً مصدراً للتلوث العقلي والاختلالات المعرفية، دون التوقف عند غياب المصطلحات الموحدة، الذي يمكنه أن يبدو كارثياً في حالة العلوم الانسانية. والحال، فإن المسلم المثقف، إذا لم يعرف إحدى اللغات الأوروبية معرفة جيدة، لن يتمكن من أي اتصال موثوق، ولو قليلاً، بإبداعات الغرب الكبرى؛ إن الموارد التي تمدّه بها لغته الخاصة تقف عموماً عند حدود الأعمال الكبرى في العصر المأثور، إن كل ما جرى التفكير به وكتابته واكتشافه منذ عدة قرون، سواء في مجال علوم الطبيعة أم في ميدان العلوم الانسانية، لا يمكن نقله إليه إلا من طريق الترجمات، وهذه لا تزال، في الوضع الراهن للأمر، مؤسفة ومفجعة بكل صراحة.

IV

الخوف من فقدان الهوية

إن التفريق بين تقنية مفيدة لأنها أدائية ومصدر مولد للقوة، وبين فكرة تخريبية لأنها منافية تماماً للتراث، لا يزال قائماً عند المسلمين. ويتم التوصل، كما هو حال الصينيين في عصر مانشو، إلى هذا التمييز: لنحتفظ بالمكسب التقني ولنحرّم الغيبيات التي تؤسسه.

هل هي رغبة هوية ثقافية؟ أم هو خوف من الاحتواء في دائرة الطرق الفكرية الخطرة؟ لا ريب في ذلك. وهذا لا يمنع أن يكون هذا الموقف التشنجي لم يتطور حقاً في أيامنا. ففي هذه المسيرة الغامضة على الأقل، نفاق ولغة مزدوجة يعكسان شخصيتنا الممزقة، وذلك من خلال ازدرائنا لعلم نعتبره مادوياً ولكننا لا نستطيع الاستغناء عنه، أو من خلال اكتفائنا بتراث محتضر يبدو لازمناً أكثر فأكثر في عالم شديد التطور. إن هذه الاجراءات النصفية هي نتيجة وضع لم يحسم فيه شيء بالانتقاد، وحيث يظل كل شيء معلقاً، موقوفاً في سديم التضمينات، والأمنيات الصباء، والتأوهات المكبوتة. نريد أن نكون في آن - وذلك دون أن نعي التناقضات الخفية - حديثين وبدائيين، ديمقراطيين واستبداديين، دنيويين ودينيين، متقدمين ومتأخرين عن الزمن. ولربما كان ذلك ممكناً لو أننا توصلنا إلى التكيف مع حالة الأمور هذه، مع علمنا بأن التناقضات، الناجمة عن الطرق الحياتية المتفاوتة، تستلزم إصلاحاً وفصلاً،

خارجيين على الأقل، ما بين المجالين المذكورين. وذلك كما هو الحال بالنسبة إلى الياباني، الذي لا يزال عمله الخارجي وطريقة حياته الحديثة غريبين، بينما تظل تقليدية الحياة العائلية والعادات المكونة لمنطقة الحياة الداخلية الحميمة، بحيث أن هذا الانكماش يجنبه إلى حد ما العذابات والآلام القاسية جداً، فضلاً عن كونه لا يشلّ فعالياته السوية.

لكننا بعيدون عن هذا كله، فللإسلام، في شكله الأصولي على الأقل، متطلباته الصارمة، يريد أن يسوي كل شيء: تدبير المجتمع، تنظيم العقول واغلاقها في وجه موجات الطفرات التكنولوجية التي تقلب العالم. وفوق ذلك، يريد أن يجعلها شفافة، قابلة للبحث وللابداع. يقول لنا جاك روفيه (J. Ruffié): «يشكل البحث الأساسي الطريق الملكية نحو التقدم؛ فهو على صعيد المعرفة معادلة لسفر التكوين الشمولي على صعيد علم الأحياء (البيولوجيا)، إنه هو الذي يبذل ويخلق، والذي يضمن، من خلال ما يقدم من ترسيمات جديدة، المسيرة الصاعدة للمجتمعات البشرية»^(١٣). إن الأصولية، إذ توقف تقدّمنا الثقافي، بوصفها ارتكاساً وتراجعاً، لا تفقدنا فقط نحو ظلامية جديدة تكون بذاتها إهانة وعائقاً لأبسط رؤانا الواضحة، بل تجمد علاوة على ذلك مسيرتنا الصاعدة، نظراً لأن مستقبلنا البيولوجي قد توقف منذ أكثر من ٤٠ ألف سنة مع ظهور إنسان كرومانيون (Cromagnon).

وما موقف المثقفين في العالم الإسلامي تجاه الخطر هذا؟ في كتاب ظهر حديثاً عن الإسلام^(١٤)، أعرب ٢٤ روائياً وشاعراً وفيلسوفاً عربياً، متحدرين من عشرة بلدان، من المغرب حتى العراق، عن آرائهم في قضايا الإسلام، تحدثوا عن انبعاث الأصولية، عن الحالة الراهنة للثقافة الإسلامية، عن الانتفاضات التي تهز هذه البلدان والأسباب المحتملة للإقلاص. هناك قاسم مشترك: جميعهم تقريباً يعارضون، بلا مواربات، قيام حكومة إسلامية لا يمكنها إلا أن تجهض، لأنها غير قابلة للتفاعل مع طفرات الأزمنة الجديدة. ففي نظر البعض، كالعراقي عبد الرحمن منيف أو الفلسطيني إميل حبيبي، يجب أن يظل الدين شأنًا خاصاً. وهذا معناه في المحصلة أن الدين لا يمكنه شمول المجال العام،

دون أن يتحول تلقائياً إلى فكرية إكراهية وقمعية. إن كل عودة إلى أية أصولية، هي في نهاية المطاف «تعويض عن نقص» (عبد الوهاب البياتي)، أو قناع لإخفاء نكسات العلمانية والقومية على حد سواء، مع الأخذ في الاعتبار أيضاً أن الاسلام، إذ يرجع إلى الوراء ويرفض كل تغير، إنما يتحجّر في وضع جامد ليغدو على المدى الطويل نوعاً من كنيسة (حالة الأزهر الراهنة) منقطعة عن إسلام النهضة التنويري. مثال ذلك ما يقوله المصري حسين أمين: «بعد مضي ٨٥ سنة على القول بأن قاسم أمين قد حل مشكلة التحجّب سنة ١٨٩٩، لا يزال هناك اليوم أناس يتناقشون في الأمر؛ ويوجد اليوم أصوات تنادي بترك المرأة الحجاب، أقل مما كان يمكن أن يسمع من الأصوات منذ ٨٥ سنة»^(١٥).

يؤكد مصري آخر، جمال الغيطاني أنه يتحدى «اليوم أياً كان من الحكام العرب، أن يطبقوا إسلام عمر بن الخطاب^(١٦)». بكلام آخر، كيف يمكن نقل نموذج عتيق منذ ١٥ قرناً وتطبيقه على ظروف مجتمعاتنا الحالية؟ من جانبه يفكر الكاتب السوداني، الطيب صالح، أن عودة ما إلى عصر النبي هي مجرد طوبى، لا أكثر. ومن جهة ثانية، يقابل هذه العودة تقليص لمجال الحرية: «سنة ١٩٢٦، يقول الغيطاني، مُنع كتاب طه حسين حول الشعر الجاهلي، وأثار ذلك ثورة. ومؤخراً، جرى منع ألف ليلة وليلة، ولم يعترض أحد»^(١٧).

في نظر المصري، لويس عوض، يعتبر الأصوليون، خلافاً لأهل النهضة - الذين كانوا قد توصلوا إلى التسليم بالتأخر والبحث عن مخارج للمأزق الذي كان فيه الإسلام -، أن الغرب متخلف أخلاقياً. ومثال ذلك أن الدين في نظر عبده كان سلاحاً لدفاع مشروع، وهو في نظر الجماعة الإسلامية، بخلاف ذلك، سلاح للاستيلاء على السلطة. إن كل رجعة هي عقبة في وجه النهضة الوطنية. يعتبر محمد أركون أن رجوعاً إلى الأصول، ينكر العمل الكلامي المهم، المنجز طوال القرون الهجرية الأربعة الأولى. وهو بالتالي هرب إلى الأمام، لأنه صادر عن تقديس الشريعة في المخيال الاجتماعي. كما أن الاسلام ليس نظام حكم، وفوق ذلك، لم يكن أبداً نظام حكم. ففي العصر الأموي، كان أداة دولة لا يمكن وصفها بأنها إسلامية، بينما كانت الخلافة العباسية تحت

تأثير حكم من الطراز الساساني (الايрани)، أكثر مما كانت تحت تأثير حكم من الطراز الإسلامي. وجد التونسي محمود مسعدي صيغة ناجحة عندما وصف الجمهوريين العرب بأنهم أصناف من «الإمارات الحديثة»، وأكد بخصوص الرجعة الشهيرة، أن من المستحيل بلوغها مثل استحالة «الأمل برد الحياة إلى جثث تستخرج من القبر»^(١٨). ويرى الجزائري رشيد بوجدره أن الإسلام بكل صراحة متعارض مع الدولة الحديثة، وكدليل على ذلك يورد المثال الايراني الذي يُعتبر «الفشل الكامل، الرهيب للنظام الاسلامي المطبق»^(١٩).

فوق ذلك، يبدو كثير من هؤلاء الكتاب متألمين من جرّاء الثورة الايرانية التي تعتبر، بطريقة ما، المثال الحي لما يمكن أن يصيره الدين عندما يتدخل في شؤون العالم بإفراط. ويذهب الجزائري، الطاهر وطار، إلى حد اتهام الأميركيين بأنهم جعلوا من الإسلام «حصناً طبيعياً في وجه ما يسمونه الخطر الأحمر»^(٢٠). ويعتقد كاتب ياسين أن الاسلام لن يتمكن أبداً من أن يكون دولة حديثة وحسب، بل إنه يتعين عليه، فضلاً عن ذلك، أن يتخلص من عادات التعصب الذي يشكل قضية الزعماء المستندين إلى الظلامية، والذين يزايدون ويبحثون عما يناقض قوى التقدم.

يحلل المغربي عبد الكبير الخطيبي مقامات اللغة وتعايش ثلاث منظومات حقوقية (الشرعية، العرف، والقانون الحديث) تتقاسم الميادين الاجتماعية في المغرب. ويعتقد أن بنية المجتمع الاسلامي ذاتها، لا تستطيع، نظراً لكونها حوارية، أن تتكيف مع أية ثيوقراطية. لكنه لا يقول لنا ما هو المخرج الممكن للصراعات التي من شأنها مثلاً أن تضع منظومة حقوقية في مواجهة منظومة أخرى. أخيراً، يرى التونسي، عبد الوهاب مدّب (Meddeb)، أن كل أصولية قائمة على رفض الآخر، استناداً إلى مرجعيات حصرية، لا يمكنها أن تكون إلا ارتداداً. «بدلاً من رفض أوروبا، لماذا لا يمكن للإسلام القبول، على غرار بعض شعوب آسيا، بالمرور الإجباري بمرحلة تعلم متواضعة، يمكنها أن تؤدي إلى استيعاب أوروبا المزعومة، وربما إلى تجاوزها؟»^(٢١).

أما أسباب الأصولية، فإنها تتنوع بتنوّع المؤلفين. فلا يزال المصريون

واللبنانيون يركزون على هزيمة ١٩٦٧، التي ليس لها الصدى الرّنان نفسه في إيران. يميز اللبناني يوسف الخال بين مراحل صعود ومراحل هبوط في تاريخ الاسلام؛ ومثاله: أن مرحلة النهضة الصاعدة في القرن التاسع عشر يمكن أن تقابلها مرحلة الانحطاط، اعتباراً من ١٩٦٧/٦/٥. يشدّد اللبناني رشيد الضعيف على انسدادات المسلمين الفكرية والذهنية، ويميّز فيها تحجرات ناجمة عن واقع انعدام الجرأة على إعادة النظر في الاعتقادات السلفية. هناك تدبّق في الذاكرة الجماعية، التي تشكل سداً في وجه كل تقدّم والتي لم تعد تنطبق على الواقع. ويرى المصري نجيب محفوظ أن الأصولية تستمد جذورها من هزيمة ١٩٦٧ والنكسات المتتالية لنمطين من التجارب: الليبرالية والاشتراكية. أخيراً، ينتقد توفيق الحكيم «العدة الغبارية» للإسلام المؤسسي الذي لا يتوصل، باعتماده على العلوم البيانية والنحوية، إلى اكتناه روح العلم الحديث.

والخلاصة، إذا كانت أسباب الأصولية معدودة نسبياً، فإن الباحثين عن تعميق المعنى الفلسفي للتأخر وما ولد من خلافات وانقسامات، هم في المقابل قليلون ونادرون. فكون العالم الإسلامي يعود في نهاية هذا القرن إلى حلول طوباوية (مدينة فاضلة) بائدة منذ أمد بعيد، وكونه يطرح باستمرار المسائل غير المحلولة نفسها، إنما يبيّن أن هناك شيئاً ما مختل؛ وأن شيئاً جوهرياً لم يحسب حسابه. وربما يتضمن هذا التمانع والتضاد مع الحداثة، كما قلنا في بداية الكتاب هذا، تفاوتاً جذرياً الذي لم يجر بعد قياس مداه ومضمونه كله. وأعني بذلك، أنه بدلاً من تجميد الإسلام على ما لا يتوافق معه. أليس من الأفضل إجلأؤه من المجال العام، وإعادته إلى المكانة الخاصة به؛ صحيح أن الاسلام ثقافة غنية، ولكنها مثل كل تلك الثقافات التي ظهرت على وجه الأرض. إذ ما هي هذه الخصوصية التي لا تقبل الحصر، والتي ينادي بها المتمسكون الحصريون بالاسلام؟ لا شيء فيه أكثر خصوصية من الهندوكية بالنسبة إلى الهنادكة، والبوذية بالنسبة إلى البوذيين والشيتوية بالنسبة إلى اليابانيين. ولكن للتوصل إلى هذا الاستيعاء، لا بد أولاً من إيضاح الانقطاعات المعرفية التي طبعت بداية الأزمنة الحديثة؛ وهي انقطاعات لا يجري، في رأيي تبيان مختلف مضامينها تبياناً

كافياً في مجالات المعرفة وعلم النفس والعلوم الاجتماعية. فغالباً ما كانت أسباب التحجرات التي تلازمنا وتشلنا كامنة في عدم التكيف مع وقائع العالم، وسوف أقول إن نظرنا تظل ملتوية ومبتورة بالنسبة إلى الواقع، حتى أن الأدوات الوحيدة لتحريرنا من الداخل ولاستشارة تبذل سجلي في ملكة إدراكنا للأشياء بالذات، لا تزال هي الفكر النقدي والشفرة الحادة لتساؤل جوهرى ينقض، بلا هوادة، على الحقائق الأكثر فزادة. بدون هذا التفكير في طبيعة حضارتنا بالذات وفي الجذر الذي تقوم عليه، سنظل دائماً نتأمل بإعجاب في الخطب الغامضة من الطراز الذي يحبه بعض المفكرين الاسلاميين.

مثال ذلك المصري عبد الرحمن الشرقاوي الذي يميز اسلاماً مؤيداً للسلطة المكونة طبقة مقدسة، من إسلام بريء قائم على القيم التي كانت قيم النبي وابن عمه وصهره علي. وإنني أعتقد، بخلاف ذلك، أن كل دين من حيث هو قانون منظم للدولة والمجتمع، يظل متأخراً. فالأمر لا يتوقف على إسلام جيد أو سيء، إنما يعود فقط إلى كون الإسلام قد مضى وقته تماماً، من حيث هو كليات اجتماعية/ سياسية، ولكن هذا لا ينفي جوانب الدين الثقافية والصوفية. ومن هذه الزاوية يمثل الإسلام، بلا ريب، بعداً مهماً من أبعاد التراث الانساني، إسوةً بديانات المعمورة الكبرى الأخرى. والحال، فإن القول، كما يفعل البعض، بوجود إسلام عليّ في مواجهة اسلام الأمويين، وبوجود الاسلام العلوي في مواجهة الاسلام الصفوي (شيعي)، إنما يعود إلى تمييزات بينظمية تخفي الواقع أكثر مما توضحه.

إن خطر التفاوت والاختلال يغدو أكثر تفاقمًا عندما نقوم بتطبيق ما يسميه ريمون آرون «التماهي التسلسلي». وهكذا يؤكد لنا الشرقاوي أن الإسلام ديمقراطي، لأنه عرف الشورى وهي أصناف من المجالس الاستشارية، ويستند في ذلك إلى حديث «استشر أصحابك في الأمور العامة». وهناك مصري، هو يوسف ادريس، ذهب إلى أبعد من ذلك: «لو تفحصنا مضمون تراثنا الثقافي، لوجدنا فيه مفاهيم وقيماً اسلامية بلا جدال، مختلطة اختلاطاً حميماً بهذا المجموع الغني والمعقد: وعلى سبيل المثال يمكننا القول إن مفاهيم ومثلاً كالاشتراكية أو

الديمقراطية معروفة هنا منذ أمد بعيد جداً، قبل أن تظهر في الغرب»^(٣٣).
أخيراً، يضيف أحمد بهاء الدين: «لا يوجد أي تناقض بين الاسلام
والديمقراطية»^(٣٤).

والحال، فأنا أفكر، خلافاً لذلك، وأعتقد أن هناك تناقضاً بينهما، تحديداً
بسبب التغيرات الجذرية التي سمحت ب بروز ظاهرة كالديمقراطية، إن مقارنة
هذين المفهومين اللذين ينتميان إلى كوكبات أفكار متباينة، قامت بينها انقطاعات
كبرى أسست الحداثة، إنما يعادل إجراء تماهٍ تسلسلي وتجاهل الطبيعة التناسلية
والسلالية للمفاهيم المعالجة. بين هذه المفاهيم الرئيسة، هناك تصدّعات
وأخاديد لا يمكن تخطّيها، وينبغي سدها بوسائل أخرى، غير تلك الوسائل التي
نلجأ إليها عادة.

لكي يكون هناك ديمقراطية، لا بد أولاً من أن يكون هناك علمنة للعقول
والمؤسسات، وأن يكون الفرد، كفرد، ذاتاً مستقلة قانوناً، وليس نفساً مغفلة
ذاتبة في الكتلة الهلامية للأمة (الجماعة الإسلامية)؛ وأن يكون القانون قاعدة
تعاقدية؛ وأخيراً أن تكون السيادة القومية قد سيطرت بشرعيتها الوجوبية
وسادت على القمع القسري للديكتاتوريين وعلى قمع المحاكم الدينية الذي لا
يقل عنه خنقاً وعسفاً. إن الديمقراطية هي إبنة الأنوار، والأنوار هي ذروة نتاج
العصر الانتقادي. أي النقد الجدي للحقائق المعتقدية. يقول أوكثافيو باز:
«الديمقراطية هي شرط الحضارة الحديثة، أساسها بالذات. لذا، لا بد من
إضافة هذا العنصر الآخر [...] في عداد الأسباب الاجتماعية والاقتصادية التي
تذكر لتفسير نكسات الديمقراطيات الأميركية/ اللاتينية، نعني غياب تيار فكري
انتقادي وحديث»^(٣٥).

إن ما يقوله باز بخصوص أميركا اللاتينية هو أكثر صحة فيما يختص بالعالم
الإسلامي. إن غياب هذا التيار النقدي والحديث هو الذي يولّد اللغة
المزدوجة، ويستثير التماهيات التسلسلية، والذي يزوّج سمكة الشبوط والأرنب
دون أن يرف له جفن، والذي يدخلنا في اختلالات غير معقولة، وينسج شبكة

الأكاذيب هذه من السلاسل التي نقيّد بها أنفسنا بكل مرح، دون أن نعرف كيف نتعلّم بحزم ما هي حدود العقل. فما يقوله رشيد بوجدرة عن الأدب العربي الحديث بوصفه «شكلاً غريباً ملصقاً فوق واقع ليس فيه شيء من الغرب»^(٢٥)، يصحّ أيضاً على الدين بكيفية مقلوبة، وطالما أنه سيجري لصق الإسلام فوق مفاهيم معلّنة جداً، مثل الديمقراطية، الاشتراكية أو الليبرالية، فسوف يتم التوصل إلى أخلاط هجينة، وكوكيتيلات متفجرة ستزرع الالتباس في عقولنا بدلاً من التوصل إلى حل مشاكلنا.

هنا يكمن فشل النهضة، مثلما يكمن فشل الثورة (عصر الثورات التي بدأت منذ الخمسينات). إن أهل النهضة، المنسحرين بالغرب، لم يدركوا أن وراء هذه القوة كان هناك تبدل في رؤية العالم، وأن بين أسلامهم والحداثة كان يوجد حقل فارغ، لا يمكن أن يسدّه الرجوع إلى القيم السلفية ولا إصلاح الشريعة. كان لا بد من تغيير السجل، تغيير الموجة الطويلة، وإفراغ المجال العام من هيمنة الأسطوريات الوجدية، لكن يمكن أن تنشأ فيه نظرة أخرى ومنظومة قيم أخرى.

إن مشكلة العالم الإسلامي تكمن في جاذبياته القديمة، في انعكاساته وتأثيراته الدفاعية، في تحجّراته الفكرية وبالأخص في هذا الزعم الوهمي الذي يعتقد أنه يمتلك ردوداً جاهزة على كل مسائل العالم. لا مناص لنا من أن نتعلم بعض التواضع، بعض نسبية القيم. فنحن لم نقم بإنجاز شيء ما أكثر من الهنود أو الصينيين. لقد كانت حضارتهم في كثير من الجوانب أكثر كثافة وإرصاناً ورقة من حضارتنا، وليس المطلوب مقارنتها، بل أن نكون متواضعين وأن نتحرّر من هذه الأنوية المركزية الهذيانة، التي تبدو كأنها توحى بأن العالم بدأ مع الإسلام وانتهى معه. ولئن كان الإسلام عظيماً فذلك لأنه استطاع، في فترة تكوينه، أن يستوعب أشد العناصر تنوعاً وأن يصهرها في مصهر توليف كبير. ولننظر في التأثيرات المتعددة للعناصر اليونانية، الإيرانية والهندية. لننظر أيضاً في المساهمات الهائلة التي قدمتها الشعوب المغزوة - التي غالباً ما كانت ذات حضارة أرقى بكثير - ووطدت بها بنيان الإسلام. إن ما يحدث اليوم مع الأصوليات من كل

نوع، لا يكتفي فقط بعدم تجديد روح الاسلام، بل يجعل منه أيضاً جوقة جنائزية لأحلام محنطة ستضيع في رمال الصحراء. إن الأصولية تخفّض العقل إلى مستوى الردود الانفعالية والغضبية، وكل سقوط للعقل يحمل في ذاته بذور العجز والوهن.

الكتاب الثاني النفاؤت الوجودي^(*)

(*) مقالة ظهرت في : 1, Albin Michel, dossier «L'Éveil du Cœur», Itinérances, mai 1986.

الواقع دائماً في مكان آخر

ليس لدى سكان كوكبنا بعد الطريقة ذاتها في رؤية العالم. فبالنسبة إلى الهندوكي المُكَبَّلُ بغواية الآلهة قوية الحضور التي لا تقاوم، تعتبر «الأسطورة» أكثر حقيقة من الحياة اليومية، ويرى بوذي ماهاياني أن حياة البوذا السعيد أكثر إشراقاً وأشدَّ عبءاً من حياة التاريخ، المتعرجة والوهمية على الإجمال، مع القول بأن هذا التاريخ ليس إلا جانباً من جوانب السمسارا (مد الولادات) المتنوعة. ويعيش المسلم الشيعي في انتظار رجعة الإمام، مخلص العالم، ولئن رأى في غضون ذلك علامات رجعته في الظهور التاريخي للحكام الغاضبين، فإن هذا لا يؤثر أبداً في وعيه الأخروي، فوعيه كله مصنوع، تحديداً، لحجب الواقع واكتشاف ما يبدو جوهرياً في ما يتعدى الواقع. ففي نظره، ليس الوجود هو العلاقات الاجتماعية المتنزلة من الطرق الإنتاجية، ولا هو «الشيء بذاته» ولا الروح المطلق في الزمن. وفوق ذلك حاولوا إبلاغه هذه الأفكار في لغته الخاصة، وسوف ترون بسرعة شديدة أنكم لن تنجحوا في ذلك. فأنتم لا تملكون المفاهيم ولا الأدوات ولا الوسائل لإبلاغه إياها. لن يجري التيار بين الوجوديات المتباينة، بين الاثنين، هناك قلب التاريخ. إن «الإجازات» الغيبية قائمة هنا، تحميها من كل تدخل للشيطان الرجيم في الزمنية، لنسبر أعماق الوجوديات الشرقية وسوف نرى أننا لن نصل أبداً إلى أرض صلبة كتلك التي كان يبدو أننا المفكر (الكوجيتو) الديكارتي قد أعلنها بالنسبة إلى هيغل، بل

نصل إلى أعماق الهاوية . لا شيء يسمح لنا بأن نرمي مرساتنا في الهاوية هذه، لا سرّ الجوهر في هذا التصرف الاسلامي التأملي الذي يغوي أبرز ممثليه، كالسهروردي وابن عربي، الشبان كثيراً، ولا خواء اللاجوهريّة في البوذية أو حتى الطاو العجائبي، المعبر عن ذاته في مفارقات وتناقضات هذيانية .

دائماً الواقع في مكان آخر، حتى أنه ليس واقعاً طالما أن الحقيقة بقدر ما تكون موجودة، تكون وهماً محضاً لا أكثر. وإن ما يسمى الموضوع بكل اعتزاز، ليس له أي معنى، فهو هنا بوصفه انعكاساً لشيء، خيلة وهمية لواقع فوقني ناءٍ عن كل نفوذ للمعرفة . لأن هناك معارف مثلما هناك أحوال وجود، مثلما هناك مستويات حضور متباينة . وإذا كانت الموضوعية خيالية/ وهمية في هذا السياق، فإن الذاتية المؤسسة لها، هي وهمية أكثر منها . إن الإنسان هو مركز مع أنه ليس شيئاً . إنه الكل لأنه جوهر الخلق المنقطع من بقية الكائنات المخلوقة؛ بقدر ما يجسّد الكلمة الإلهية، لكنه لا شيء لأنه ليس سلطة/ محكمة مؤسسة، فكل ما هو عليه، كل ما يمثله، يستمدّه من آخر، وهذا الآخر هو في نهاية الأمر، أساس الكون الذي لا أساس له .

لكن ماذا حدث بين تلك الوجودية الأصلية للإنسان القديم وهذه الوجودية التي أقامتها حادثة الأزمنة الجديدة؟ لا بد إذن من أن يكون قد حدث شيء ما: انزياح النظرة من فوق إلى تحت . عندما أقول من فوق إلى تحت، فإنني لا أصدر أي حكم قيمي . وإن تكلمت بحدود الارتفاع، فذلك لأن النظرة بدلاً من أن تضيق في هاوية التأملات الأولى، إنما انحرفت عن آفاق بعيدة لتدرك الأشياء، العينية الأكثر قبولاً للإدراك الفوري . زد على ذلك أن العلم، النظر، اهتمام الخاص، التعيين الكمي للأغراض، قد تراءت لوعي الإنسان لأن الانسان كان قد أدار ظهره، نهائياً، لجاذبية الغوايات الغيبية .

ليكن عملاً بطولياً، وربما كان شجاعة بروميثيوسية، ثورة على الحقائق الموروثة، بلا شك، ونكاد نغوى بالقول إن نظرة الرجل الديني الرائية صارت النظرة البصرية عند الإنسان الحديث، فجأة نكتشف ما كان دائماً في مواجهتنا هناك، مستخلصاً من تصورات النظرة . غالباً ما يُقال، مثلاً، إن النهضة

الأوروبية اكتشفت قوانين المنظار/ الأفق. كما لو أن الفنانين التزيينيين في العصر الوسيط ما كانوا يرون العالم كما يجري أمامهم. صحيح أنهم كانوا يرونه، لكنهم في الوقت نفسه كانوا يكتشفون مجالاً/ فضاءً «أكثر واقعية»، أكثر فتنة، كان بسبب من مضمونه الفكري أقرب إلى واقع الرؤية من الواقع الذي كان يبدو الإدراك الحسي كاشفاً له. بين هذه الرؤية الفكرية وتلك الفكرة الحسية يندرج التحول المنظاري للرؤية. إن عدم اندهاش هذه النظرة شبه السحرية هو الذي مكّن من اكتشاف امتداد كمي، سيقوم، لاحقاً، بخفض العالم إلى المدى الهندسي الذي تعيّن عليه، بدوره، أن يتعرض في مطلع عصرنا لتحول أكثر اندهاشاً أيضاً: الميكانيك الكمي (الكوانتي).

ربما يكون انقلاب الوضع هذا، واحداً من أركان الحداثة الأساسية. إن عواقبه لا يمكن عدّها، سواء في مجال تقويم الطبيعة، الإنسان، الله، أم في مجال تقويم التاريخ. ففي الواقع تبدّلت هذه الأفكار الأربع تبدّلاً كلياً، وفقاً لتموضعها في منظومة وجودية أو في أخرى. جرى في الغرب التحسّس بهذا الانقلاب من خلال الانتقال من الغيبيات إلى الاجتماع ثم إلى التاريخ. ولئن كانت مسألة الشر، مثلاً، قد ظلّت موضوعاً غيبياً في نظر مفكر حديث مثل باسكال، فلن تكون كذلك بالنسبة إلى فلاسفة الأنوار. لقد استرجع باسكال كل موضوعات أوغسطين الكبرى ونقلها إلى لغة حديثة، كانت منهجيته ديكرتية، لكن الطبيعة المزدوجة للإنسان الذي يندّد باسكال بعظمته وبؤسه، إنّما تعود إلى السقطة، أي إلى حدث أسطوري، سابق لولادة الإنسان. وبالتالي، لا يستطيع الإنسان البحث عن شرطه الحقيقي من طريق العقل الطبيعي. «اعلموا إذن معجبين أية مفارقة أنتم بالنسبة إلى ذاتكم؛ تواضعوا، فإن العقل عاجز؛ اسكتوا فإن الطبيعة بلهاء؛ تعلّموا أن الإنسان يتجاوز الإنسان بلا حدود؛ واسمعوا من معلمكم الشرط الحقيقي الذي تجهلون؛ اصغوا لله»^(١).

في نظر جان - جاك روسو، تقع المسألة في مكان آخر. فمن الآن وصاعداً بات لطبيعة الإنسان الغيبية المزدوجة، بعد تاريخي يضع الحالة الطبيعية في

مواجهة الحالة الثقافية. يقول روسو في بداية كتابه إميل: «كل شيء جيد عندما يخرج من بين يدي خالق الأشياء؛ كل شيء ينحط ويفسد بين يدي الإنسان»^(٣). وهكذا لم تعد مسألة مسؤولية الشر تصدر عن الله، ولا عن أية سقطة في ما قبل التاريخ، بل تعود إلى التاريخ الذي يبذل المجتمعات بلا انقطاع. ففي التاريخ يتعين إيجاد الحل، وليس في البعد الأسطوري للخطيئة الأصلية. إن إنسان الحالة الطبيعية متوحش طيب؛ يحركه الحب الذاتي الذي هو غريزته للحفاظ على نفسه، وبراءته الطبيعية، فهو لم يتأثر بعد بالمجتمع الذي سيجعله أنانياً وقمعياً، محوَّلاً على هذا النحو حبه لذاته إلى حب شخصي خاص. إن المجتمع هو الذي يبذل السمة الطبيعية للإنسان ويجعله كائناً مسلوباً/ مرتهاً يعيش من أهوائه ورغباته التي لا ترتوي. هذا الارتهاان مرتسم في مسيرة التقدم ذاتها. كل تطور للمجتمع هو مسار ارتهااني، ولن يتم التحرُّر في مستوى التحول الوجودي بل في مستوى تجدد المجتمع ذاته، الذي حين يخضع الإرادات الفردية للإرادة العامة القائمة على الفضيلة، سيضع حداً للطيبة والصِّلف والاستغلال. إن الإنسان نفسه هو الذي يتعين عليه أن يغدو منقذ نفسه، محرك مجتمع أعدل، حيث لا يعود يخضع لغير الإرادة العامة، بدلاً من الخضوع لتحكم الآخرين وارتجالهم. يقول ارنست كاسيرر: «ذلكم هو الحل الذي تقدمه فلسفة روسو في الحقوق لمسألة الربوبية. ومن الثابت أنه وضع هذه المسألة في مجال جديد تماماً، حين نقلها من الصعيد الغيبي إلى قلب الأخلاق والشاعرية»^(٣).

إن «هجرة الروح» هذه التي تهجر مكانها الغيبي لترسو فوق أرض أخرى، نعني التاريخ والارتهاان الناجم عن تقدُّم العلاقات الاقتصادية والاجتماعية، هي تحديداً ما يفصل الغرب عن حضارات المعمورة الأخرى. لنقل فقط إن المسافة التي قطعها انتقال الروح هذا هو انقلاب، قلب لكل المقولات، وفي النهاية تبديل للكوكبات كما يُنتقل من كوكب إلى آخر. بين الاثنين تقع عطله الحضارات الباقية خارج هذه الحركة. من جهة ثانية، تندرج في هذا الانتقال كل الثغرات، كل الانكسارات، كل التمزقات التي تمزق عالمنا المعاصر،

وتحدث زلازل اجتماعية، وانقلابات في العلاقات الدولية، وتقسيماً للعالم إلى مناطق رفيعة التطور، وناقصة التطور، ومناطق مختلطة في آن.

مما يزيد أيضاً في جعل الوضع لا يطاق، كون حالة الأمور القديمة لا تظل أبداً كما هي، بل تصاب بعدوى الانتشار الكوكبي لطرق فكرية جديدة تتآكل من الداخل، بحكم الكلفة العملائية لفعاليتها، وتقرض بناءات العالم القديمة. إن إيجاد مدارات ثقافية يمكن عزلها عن موجات الحداثة المتعاقبة، هو وهم محض. زد على ذلك أن كل احتمال رجوع، كل يقظة للأصولية، في أي شكل كان، هي وهم أيضاً. فالتراث مهما عاش، لا يمكنه العودة وجودياً إلى نقطة انطلاقه، الواقعة في ما قبل الحداثة. إنه يلتصق دائماً في الحقبة الحديثة اللاحقة. ربما باستثناء القبائل الأمازونية النادرة التي نجت بأعجوبة من مجزرة البيض، أو القبائل المنزوية، حيث لا يعلم إلا الله في أية زوايا بعيدة من المعمورة، كانت كل الثقافات، مهما يكن أصلها ومكانها، قد تأثرت بالحداثة، أي بهذه الهجرة الروحية/ العقلية من أعلى إلى أسفل. ومذ ذاك، ونحن نعيش جميعاً في مناطق تخالط، في مجالات تلاقي، حيث تتشابك جميع النظرات، سواء النظرات الصادرة عن الرؤية القديمة للأشياء أم الرؤية التي صنعتها التقنية والتطور والتاريخ.

لقد صار برج بابل واقعاً وحقيقة، ليس فقط فيما يختص باللغات - إذ لا يزال أماننا هنا مشاكل شبه مستعصية على الحل - بل فيما يتعلق بالعقليات أيضاً. إن الهذيان الديني والهجاس الثوري وتحرر النساء، والتراجع نحو طوباويات ضبابية أكثر فأكثر، وحرب النجوم، وانبشاق المعتقدات المهجورة، تتعايش كلها في مشاكل آراء واعتقادات ورؤى للعالم، حيث لا يعلم أحد عما يتكلم، ولا يعرف ما هي القواعد المنطقية التي تؤسس هذا الخطاب السياسي بدلاً من ذلك الخطاب السياسي الآخر. وبينما ترجعنا الأمان وال آمال إلى المعتقدات الأشد انشجاًناً من الناحية العاطفية بتقاليد قديمة، تظل البنى المفهومية، القادرة على الربط بينها، بمثابة الفروع الأكثر تأخراً والأشد هولاً من حداثة غير مفهومة. وأن ما بينها يغدو، بكيفية ما، معيار الحياة: نحاول أن

نفهم، أن نحلل، ولكننا حين نضطر لتفسير التفاصيل والدوافع المتهمة من كلا الجانبين، إنما نفقد الجوهر: نعني الانقطاعات التاريخية التي جعلت من الغرب حصناً للحدائث، وجعلت من الحضارات الأخرى في العالم آثاراً كبيرة من آثار الماضي.

II

التجسس المدرسي

إن حضارات الأرض القديمة، لا سيما التقانات الآسيوية الكبرى، توقفت عن الإبداع منذ القرنين ١٧ و ١٨. لقد كان هذان القرنان من المراحل الفاصلة في تاريخ العالم. فإذا كان السابع عشر قد وقع تحت هيمنة الإبداع الديكارتى في المنهج، فإن الثامن عشر كان عصر الأنوار والانتقاد. كما أن الثنائية الغيبية تُرجمت سياسياً بالمجال الخاص للوعي الحر وبالمجال العام للسلطة الإطلاقية؛ وفي القرن ١٨، كان دور المجال الخاص في مراقبة السلطة وإظهار التناقضات الجدلية التي تضع الأخلاق في مواجهة السياسة. من هنا فكرة الأزمة والمحاولات الرامية إلى تهذيب أخلاق السلطة، التي ستؤول، كما نعلم، إلى فكرية الثورات. كانت كل تلك الثورات بمنأى عن الحضارات الآسيوية التي تسير على هدى بحثها الأولي. فقد أنهكت قوتها الإبداعية لتتوقف تحديداً عند فجر هذه الانقلابات الكبرى، التي هزّت تاريخ العالم والتي ستظل الحضارات الآسيوية، من جهة ثانية، عاكسات لها حتى منتصف القرن التاسع عشر.

إن التوليف الأكبر في الفكر الإسلامي، مثلاً، اكتمل في إيران قرابة القرن ١٧ في ظل السلالة الصفوية (١٥٠١ - ١٧٢٢). إنه ميلاد مدرسة أصبهان والبناء العقائدي المدهش لـ ملأ صدرا الشيراز (١٥٧١ - ١٦٤٠)^(١)، حيث تتلاقى عدة تيارات متقاربة، وتختلط وتنصهر في مصهر قوة توليفية. كان صدرا

معاصراً لديكارت، وبينما كان الأول يكمل حركة عمرها عدة قرون ويضيف اللبنة الأخيرة إلى البناء الغيبي الاسلامي الكبير، كان الثاني وهو يقطع مع الماضي، يجدد ويفتح طرقاً جديدة واسعة، ستجعل من الإنسان المرجعية المؤسسة للعالم. أما في إيران، فسوف تكون كل التطورات الفكرية اللاحقة حتى أيامنا، بنوع ما، تنتمى للشروحات حول أعمال صدرها التي لم يتم تجاوزها أبداً من حيث مضمونها الغيبي. إذ لا يمكن انطلاقاً من هذا الانصهار، المرتفع عمودياً كسهم غوطي، أن يتم أي ابداع وتجديد إلا بعبارات القطع مع مقدمات علم الكلام الاسلامي. وهذا ما لا يمكن للرؤية الدينية للإنسان أن تتساهل معه، دون أن تتخلى عن ذاتها. من هنا تكسّد الفكر المحدود دائماً داخل فضاء فلسفة نبوية، تواصل تكرار نفسها من مفكر إلى آخر، بأشكال متضاربة، إلى أن تصل إلى التحجر المدرسي. ويغدو هذا التحجر بالغ الوضوح منذ أن وضع النفوذ الغربي الظاهر منذ نهاية القرن ١٨، والمتصاعد انطلاقاً من القرن ١٩، وروج أفكاراً جديدة - اجتماعية وسياسية في معظمها - سيكون من الصعب على هذه الحضارات مواجهة تحديها. فهي إذ حوصرت بطرق فكرية هجومية أكثر فأكثر ومعادية، إنما تهمشت وانكمشت على ذاتها، بينما كان الأفراد اجتماعياً يعيشون وينتجون مجدداً وبشكل رتيب المسالك السلفية القديمة ويفكرون وفقاً لترسيات فكرية بائدة، يتناقض تناسبها مع وقائع العالم المتغيرة التي تحيط بهم.

إن الحضارة الهندية التي كانت على امتداد أكثر من ثلاثة آلاف سنة قد شيدت عمارات غيبية كبرى وكاتدرائيات فكرية مميزة، ستخور قواها قرابة القرن ١٧، شأنها في ذلك شأن الثقافة الإيرانية والثقافة الصينية. والواقع، أن الهند كانت أحد المراكز الحضارية الأكثر سطوعاً في قلب آسيا. فقد لعبت في آسيا ذات الدور الذي لعبته اليونان في الغرب، تدريجياً امتدت الهندوكية لتشمل كل التحولات والطفرات الفلسفية، وجميع الأفكار الجديدة التي كانت تظهر على هامش الأرثوذكسية البرهمانية، وفوق ذلك ستؤول إلى ابتلاعها جميعاً في مصهرها الكبير، باستثناء البوذية والجاينية اللتين حين رفضتا السلطان القدسي لكتب

القيدا، لم تحظيا بأي حق في البقاء. أما البوذية، وهي إحدى ابداعات عبقرية الهند الأكثر عالمية وشمولاً، فكانت بوجه خاص ديناً للتصديق. فمصباح الحكمة الذي أوقده بوذا في القرن السادس ق.م. أضاء بنوره قسماً كبيراً من القارة الآسيوية، إذ أدخل المقولات الأساسية للحضارة الهندية في الشرق الأقصى قاطبة، حيث ستعرض من خلال احتكاكها بحضارات ساطعة مثلها، لتحولات مدهشة وتوليفات مذهلة.

وحين قسم س. راداكريشنان^(٥) مراحل الفلسفة الهندية، فرّق بين:

- ١ - المرحلة القيدية (١٥٠٠ - ٥٠٠ ق.م.)؛
- ٢ - المرحلة الملحمية (٦٠٠ ق.م. - ٢٠٠ م.)؛
- ٣ - مرحلة السوترا؛
- ٤ - المرحلة المدرسية (السكولائية) التي اكتملت في القرن ١٧.

وإننا نشهد من المرحلة القيدية حتى المرحلة المدرسية (أي أكثر من ٣٠٠٠ سنة) اغناءً متصاعداً لرؤية العالم، التي اختلطت في البداية مع أناشيد القيدين الأسطورية، وتجمّدت لاحقاً في العقيدة المتصلبة لقربان البرهمانا، لتظهر مجدداً أو وبإشراق قوية، في الأوبانيشاد. وهذه (أناشيد الأوبانيشاد القيدية) قد تكون حسب التراث الهندوسي، من إبداع الرائين (Rishis) في الأزمنة القديمة، الذين حين اعتزلوا في صمت الغابات، وصفوا تجربتهم الغيبية في صورة آيات باطنية جداً؛ إنها تجربة يستيقظ فيها الفكر على تساؤل واستجواب العلل الأولى، حيث طقس التضحية يُستبطن جاعلاً من النفس الانساني القربان الأكبر، وحيث أخيراً البحث عن المطلق، المعبر عنه في تعادل هوية الانسان والعالم - هذا هو أنت (tat tvam asi) - يكتسب بعداً دوارياً حتى لا نقول هُجاسياً.

على هامش الأرثوذكسية البرهمانية ورداً عليها، خصوصاً في أوساط طبقة المحاربين (Kshatriya)، ولدت العقائد الأكثر جسارة وهرطقة؛ منها ما تساءل كالبوذية عن سلطان القيدين وأنكر الأساس الأخير للعالم واضعاً الفراغ مكانه؛ ومنها ما دعا إلى تأسيس منطق نسبوي دقيق، كالجاينية؛ ومنها ما قال بعقيدة

كونية ثنائية كالسمخيا؛ ومنها ما قال بعبادة فيشنو (Vasudeva Krishna) أو بعبادة شيقا (باشوباتي) - اللتين ستؤديان على التوالي إلى المعتقدين الفيشنوي والشيقي؛ ومنها أخيراً ما أنكر كل تعالٍ ولم يقبل بأي شيء آخر، خارج الواقع الحسي كالماديين الكارثاكا واللوكاياتيين.

جميع هذه المذاهب، ما عدا العقائد المهرطقة جداً، ظهرت في ملحمة مهابهاراتا الكبرى، حيث ستنضاف إلى تجسيد فيشنو في صورة كريشنا، تعاليم فلسفية ولاهوتية متطورة جداً كعقيدة ساخيا - يوغا مثلاً في البهاغاواد غيتا. إن الملحمة الكبرى تشكّل على هذا النحو موسوعة لكل الأفكار والاعتقادات، التي سيجري لاحقاً تفعيدها في كتابات ذات اختصار محير.

إن جميع المذاهب الفكرية التي تقبلتها البراهمانية سوف تتجمّد في نصوص قصيرة جداً تدعى سوترات، أي عبارات قصيرة، مكثفة جداً، جديرة بأن تحفظ في الذاكرة. من هنا، الميل إلى شرح السوترات وكتابة تعليقات على الشروحات، ثم تعليقات على شرح الشروحات، إلخ. إن كل هذا الأدب التفسيري الممل غالباً، لكنه ذو دقة تقنية كبيرة، سيشكل المرحلة المدرسية، وسنرى من الجانب الهندوكي ظهور شراح / مفكرين كبار مثل: شنكارا، رامانوجا، فاكاسباتي ميشرا، فيجنآن بيكشو؛ ومن الجانب البوذي، ظهر مفكّرون جريئون مثل: ناغارجون، أشفاغوشا، ثم بوذا غوشا. ستشهد هذه المرحلة التطور الخارق للفكر الهندي الذي، حين صعد في السماء على شاكلة سهم غوطي مضيء راح يعكس بنية فنية متقنة لا سابقة لها في تاريخ الحضارات، ولكن جاذبيتها نفسها ستؤدي إلى اختناقها. وعلى هذا النحو أرهقت الهندوكية وضائق نفسها اعتباراً من القرن ١٧، لن يكون ثمة إبداع، بل تكرار، محاكاة، وأخيراً تحجّر.

لكن ظاهرة روحية أخرى ذات أهمية كبرى ستسطع سطوعاً خاصاً، في موازاة هذا التطور الأخير؛ علاقات الهند والإسلام العائدة بوجه خاص إلى عهد السلالة المغولية، ففي القرن ١٦، أنهى بآبور، سلطان كابول المتحدّر من

تيمور، سلالة آل لودي، ليؤسس امبراطورية المغوليين الشهيرة سنة ١٥٥٦. ومع أكبر، حفيد بابور، بدأ العصر الأكثر سطوعاً في تاريخ الهند الحديث.

في أثناء عهد أكبر (١٥٤٢ - ١٦٠٥)، المعتبر على غير صعيد بمثابة العصر الذهبي للعلاقات الهندية/ الإسلامية، بدأت مرحلة نشاط أدبي كبير. إن ثقافة المغوليين الإسلامية هي بوجه خاص باللغة الفارسية، فعلاوة على كون الفارسية هي اللغة الرسمية للإدارة، كانت تروّج أيضاً جميع القيم الثقافية للفكر والدين، بحيث إن بلاط السلاطين المغوليين صار، في مواجهة التعصب الديني لدى الصفويين في إيران، الملاذ المميز للشعراء وللرسامين والمفكرين الإيرانيين الذين استوطنوا هناك دون أي تغرب ثقافي. زد على ذلك، أن الفارسية ستظل اللغة الرسمية حتى ١٨٥٧ (تاريخ ثورة القبائين - «La Mutiny»)، وبموجب قرار ١٨٥٨ ستدمج شبه القارة الهندية في التاج البريطاني، مبتدئة على هذا النحو بإدارة إنكليزية من الطراز الاستعماري. وكان أحد المنجزات الأكثر تألقاً في العصر المغولي الشروع بترجمة المآثورات السنسكريتية إلى الفارسية؛ وهي بلا شك ظاهرة مساوية في أهميتها لترجمات النصوص اليونانية، إلى السريانية، ثم إلى العربية، أو نقل النصوص العربية إلى اللاتينية، الذي جرى في طليطلة منذ منتصف القرن ١٢.

تشكّلت فرق مترجمين حقيقية، شارك فيها أفضل عقول العصر: فايزي، «أمير الشعراء»، أخوه أبو الفضل، المؤرخ والوزير، الخ. جرى نقل المهابهاراتا، الرمايانا، الهاغاغادغيتا، الاتارفاغيدا، البانكاتانترا، وكثير من الأعمال الأخرى، وانكشفت هذه الروحية التوفيقية في عهد جهانغير، خليفة أكبر، (١٥٦٩ - ١٦٢٧)، لكنها عرفت إشراقة أخيرة مع الأمير الامبراطوري دارا شوكوه الذي أظهر، على غرار جدّه الأكبر، اهتماماً كبيراً جداً بالهندوكية وبدراسة الأديان المقارنة. السر الأكبر، العنوان الذي أعطاه دارا لترجمة خمسين نشيداً من أناشيد الأوبانيشاد، هو العمل الرئيس في السلسلة، والذي كان له أكبر الأثر.

إن أعمال دارا (١٦١٥ - ١٦٥٩)^(٣) تسجّل في آن واحد ذروة وانحطاط مجهود

توفيقي كبير ما بين ديانتى الهند: الهندوكية والإسلام. إن موت دارا، مأساوياً، على يد شقيقه المتعصب أورانغزيب في ١٠ أيلول ١٦٥٩، أنهى حلم التوفيق والمصالحة بين الجماعتين الدينيتين، الذي سيؤدي فشله في القرن ٢٠ إلى تقسيم الهند والباكستان. وانطلاقاً من القرن ١٧، كان تاريخ الهند سلسلة نكسات ستكون نهايتها ضم شبه القارة إلى الامبراطورية البريطانية^(٣).

أما الصين، فقد أظهرت هي الأخرى علامات انحطاط منذ القرنين ١٦ و١٧، تمتد المراحل الكبرى للتاريخ الصيني على ٤٠٠٠ سنة تقريباً، من سلالة إكسيا (٢٢٠٧ - ١٧٦٦ ق.م.) حتى نهاية سلالة كينغ الصينية - المنشورية (١٦٤٤ - ١٩١١) مروراً بسلالة زهو (١١٢١ - ٢٥٦ ق.م.)، (حتى لا نذكر إلا بعض الأمثلة) - التي ظهر في أيامها، في القرنين السابع والسادس ق.م.، لاوزي وكونفوشيوس - ومروراً بسلالة هان (٢٠٦ ق.م. - ٢٢٠ م.)، وتانغ (٦١٨ - ٩٠٧) وسونغ (٩٦٠ - ١١٢٧) ويوان (١٢٧٢ - ١٣٦٧) مينغ (١٣٦٨ - ١٦٤٤).

إذا كانت سلالة تانغ، المعتبرة ذروة الثقافة الصينية، مرحلة توحيد الامبراطورية التي جعلت من الصين قوة عظمى في آسيا، مع عواصمها الامبراطورية وسطوع ثقافتها؛ وإذا كانت تلك السلالة مرحلة مصالحة بين ديانات الصين الثلاث الكبرى: الكونفوشيوسية، الطاوية، والبوذية، مثلما كانت مرحلة ازدهار الشعر (لي بو، توفو) والعمارة (التمثال الهائل لبوذا في مغاور لانغمان المنجز سنة ٦٧٦)، فإن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى السلالة الصينية الأخيرة في العصر المنشوري. في المقابل سيكون عصر سلالة كينغ عصر التجميعات الكبرى: الموسوعات والمجموعات الأدبية، وراحوا يجردون ما كدّسوه، ويعيرون أنفسهم بمعايير الماضي ونماذجه، ويرجعون إلى المصادر وهم يزيلون الآثار المتعاقبة للتأويلات المفترضة باطلة، والتي أثقلت النصوص المدونة والمقونة. فالشعر افتقر إلى الإلهام حين قلد آل تونغ وآل سونغ، وصار لعبة علماء مهتمين باصطناع شعر متعالم. وبالتالي ستكون النزعة العامة لتلك المرحلة هي النهضة، وذلك على قدر ما تعاظم النفوذ الغربي، منذ نهاية سلالة مينغ،

بفضل مساهمة المبشرين اليسوعيين واضطراب الصينيين في تلك المرحلة لمواجهة هجوم التقنيات المبتكرة التي لا يعرفون شيئاً عنها، والعقيدة الدينية التي كانت كامنة وراءها. فوق ذلك، حتى في عصر مينغ (١٣٦٨ - ١٦٤٤) بات الرجوع إلى المصادر أمراً شائعاً: راح الشعر والنثر يقلدان كبار أساتذة الماضي وطالب الشاعر لي منغ يانغ (١٤٧٢ - ١٥٢٩) بالعودة إلى القديم، رافضاً أدب ما بعد هان. كتب ج - ب. ديني (Dieny) حول نهضة الأدب: «إن النزعة إلى إحياء الماضي ملموسة في كل الانتاج الأدبي في عصر منشو وكذلك في فنونه. ففي الآداب نرى تباعاً ظهور جميع الأساليب، كل أنواع الماضي؛ لكن دون أن يتعلق الأمر بمجرد تقليدات مبتذلة وعقيمة: ففي كثير من هذه الأنواع، بلغ كتاب آل كينغ كمالاً نادراً، وتمكنوا من التعبير بطريقة أصيلة»^(٨).

على الرغم من النهضة التي تلاحظ في المجالات كافة، لم يكن الفكر الصيني خلافاً في تلك المرحلة، في المعنى الذي كان عليه في مرحلة آل تانغ، لكنه كان رجوعاً إلى المصادر وتساؤلاً عن تراثٍ محشو وثقيل شوش، في نظر مفكره، شفافية الأصول. ومثال ذلك هوي دونغ (١٦٩٧ - ١٧٥٨) الذي يقول: لأجل فهم أفضل للنصوص المدونة، لا بد من الرجوع إلى تفسير آل هان السابق للبوذية وإلى يقظة الطاوية؛ من هنا اسم مذهب هان^(٩) (في التفسير). إن الانتقاد يقوّض التراث ليظهر على وجه أفضل الجوهر المتخفي في شوائب التفسيرات الباطلة. لكنه لم يجدد، لم يبدأ عصر تأملات جديدة أو تبدل في النظرة، ولم يؤدّ إلى علمنة العالم، ولا إلى التبدل الجذري، اللذين سيقبلان غرب الأزمنة الحديثة. إن التشابهات بين غي يانو ولوثر، بين الشاعر الرافض والإباحي يوان مي (١٧١٦ - ١٧٩٨) وفولتير^(١٠) ربما تتوقف عند هذا الحد. فتلك الانتقادات، على الرغم من أصالتها، لم تعلن عهد النقد كما دشنته الأنوار في القرن ١٨. كما أنها لا تسجل طفرة معرفية منقطعة عن (Weltanschauung) الصينية، نظراً لأن الهدف المنشود كان بالتحديد استرجاع رؤية الماضي القديمة. وبدلاً من ذلك، تُظهر تلك الانتقادات أن القوة الخلاقة للفكر الصيني، التي كانت قد تبلورت في غضون آلاف السنين في

المدونات الثقافية، قد وصلت إلى حدها، ولم تحل محلها أية رؤية جديدة منقطعة عن الماضي. وعلى هذا النحو، لن تؤدي تلك النهضة أبداً إلى حادثة الأزمنة الجديدة^(١١).

III

التغريب الجذري

إن انحلال تلك الحضارات يضع أيضاً حداً لتشابكاتها الخصبة، فعصر الترجمات الكبرى الذي ولّد الملتقيات المثمرة بين الهند والصين، بين إيران والهند، بين الصين واليابان، شارف على نهايته. لقد انعزلت هذه الحضارات الكبرى عن بعضها البعض، واستدارت كلها نحو الغرب. لقد انسحبت من التاريخ، دخلت في مرحلة انتظار، وتوقفت عن التجدد ونهلت من المخزونات. إنها شبيهة بتلك العائلات الغنية الارستقراطية التي تجاوزتها الأحداث، ودمرها تفاوت الوقائع الاقتصادية، فأنقذت ماء الوجه ببيعها السري لمجموعات آثارها السلفية: المجوهرات، اللوحات، السجاجيد، الفضّيات، وجرت الأمور على هذا المنوال إلى اليوم الذي استفاقت على هذه الحقيقة المرة وهي أنها لم تعد تملك شيئاً للبيع.

كما أن هذا الانسحاب من التاريخ يؤثّر إلى حد ما في أميركا اللاتينية. فقد نبّه أوكثافيو پاز، بحق، إلى أن الإيرانيين والهنود والصينيين، إذا كانوا ينتمون إلى حضارات مختلفة عن الغرب، فإن الأميركيين اللاتينيين هم امتداد للحضارة الغربية. إن حبلهم السري يربطهم بإسبانيا والبرتغال. وهم بالتالي يمثلون واحداً من قطبي الغرب الأميركيين، نظراً لأن القطب الآخر مكوّن من الولايات المتحدة وكندا^(١٧). غير أن هذا الارتباط يخفي فوارق مهمة. يعدد پاز ثلاثة منها:

١ - المساهمة الثقافية للمتحدثات الهندية الراجعة إلى الحضارات ما قبل الكولومبية؛

٢ - الطابع الخاص للحضارة الأندلسية / الأسبانية المطبوعة بطابع الإسلام؛

٣ - الإصلاح المضاد، فهذا كان نفيًا للحدثة الناشئة، إذ كانت الملكية الأسبانية تخطط قضيتها مع قضية فكرية «تتهامى مع دين عالمي ومع تأويل واحد لهذا الدين». وصار العاهل الأسباني هجيناً يعود نسبه إلى تيودور الأكبر وعبد الرحمن الثالث، آخر خليفة في قرطبة^(١٧).

وهذه المفارقات ستجعل أميركا اللاتينية تبدو كأنها متباينة تاريخياً عن أميركا الشمالية؛ لأن الأميركيين الشماليين، إذا كانوا قد ولدوا مع الإصلاح والموسوعة، أي مع العالم الحديث، فإن الأميركيين اللاتينيين يظهرون في التاريخ مع الإصلاح المضاد والمدرسية الجديدة، وبتعبير آخر ضد العالم الحديث^(١٨). من هنا، في نظر باز الطبيعة الخاصة بأميركا اللاتينية التي تظل القريب الفقير للغرب، مع أنها ليست العالم الثالث. إن هذا سيؤثر على طبيعة الأدب الأمريكي / اللاتيني وعلى سلوك مثقفيه. فإذا كان الأدب الأسباني / الأمريكي حديثاً - في معنى أنه يعكس بكيفية معينة «الفراغ الذي تركته اليقينيّات الإلهية القديمة، الملعومة بالنقد» - فليس في الإمكان قول الشيء نفسه عن الفكر الفلسفي والسياسي، الذي يظل بكل صراحة مضاداً للنقد، ذلك لأن أميركا اللاتينية افتقرت إلى الموسوعة والعصر الانتقادي، «لم يكن لدينا قرن ثامن عشر؛ ومع أفضل إرادة طيبة، لا نستطيع أن نقارن فيجو أو جوفلانوس مع هيوم، لوك، ديدرو، روسو، كانط، إليكم القطيعة الكبرى: هناك حيث يبدأ العصر الحديث، يبدأ انفصالنا أيضاً»^(١٩).

إن هذا القطع مع الحدثة وما يتجسّد فيها من وقائع اجتماعية، سيجعل الأفكار، حين لا تعود تجد أي مقابل لها في الوقوعات الاجتماعية، تتحول إلى أقنعة، وحتى إلى فكرويات. وسوف تكون شاشات تخفي الذات ونظرتها إلى الواقع. من هنا الطلاق بين الفكرة والموقف، فإذا كانت الأفكار صادرة عن آخر نداءٍ للزّي السياسي الرائج، فإن المواقف تضرب جذورها في الموروثات

الأكثر عناداً. «إن الأفكار من الحاضر، والمواقف هي مواقف الأمس. كان أجدادهم يقسمون بالقدّيس توما، وهم لا يحلفون إلا بماركس، ولكن بالنسبة لهؤلاء وأولئك كان العقل سلاحاً في خدمة حقيقة، ومهمة المثقف أن يحافظ عليها. فتصورهم للتقانة والفكر تصور سجالي وقتالي: إنهم متشابكون»^(١٦).

إن هذه المسالك الفصامية التي يحدّثنا عنها باز، نجدها أيضاً بطريقة أكثر بروزاً في العالم الإسلامي، وعند مثقفي العالم الثالث عموماً (سنعود إلى ذلك بتوسع في الكتاب IV). والحال، فإن هذا الطلاق مع العصر الحديث يتطابق مع التغير الجذري في الغرب - وهذا أمر بالغ الأهمية.

هناك، ينهار العالم القديم وتترزع القواعد الثقافية. المدرسية تتطاير أشلاء، وبعد ذلك جاءت النهضة، ثم بداية العصر الماثور وولادة العصر العلمي / التقني. لهذا الانقلاب عواقب هائلة. فهو في آن، ثورة في مجال العلوم وفي نظرة ذلك الذي يكتشف العالم بنظارتين جديدتين. لقد فقد تأثيره الجذر القديم لعالم قائم على القياس، والمادة اكتسبت حقها ليس بوصفها نفيّاً للوجود، بل بوصفها قوة مبدعة، خلّاقة للطبيعة. حل النظر والملاحظة محل تأمل الرؤى الأولى، ثم جاء الاختبار الممكن التحقق منه وفقاً لقوانين الطبيعة. وحلّت الرياضيات محل القوى الخفية. وظهر التاريخ كأنه حركة الروح والعقل. باختصار، حدث فيه تبدل جذري لم يعد يوفر أي مجال من مجالات الوجود، لكن هذا كله تم خارج مدى الحضارات الآسيوية الكبرى، في مدار ثقافي محصور أساساً بأوروبا الغربية، هذه التي صارت، منذ القرن ١٧، مصهر الجذر الجديد الناشئ، كما صارت مهد الحداثة الذي لا يرقى إليه الشك.

في موازاة هذا الانزياح، نلاحظ إعادة تركيز للاقتصاد. يبيّن لنا فرناند بروديل أن انزياح مراكز الجاذبية على صلة بما يسميه «الاقتصاد - العالم» (Weltwirtschaft). ويتضمن كل اقتصاد - عالم، واقعاً ثلاثياً: مجال جغرافي، قطب مثل لندن بالأمس ونيويورك اليوم، ومناطق متعاقبة، «كلما حدث انزياح في المركز، جرى تركيز جديد، كما لو كان الاقتصاد لا يستطيع العيش دون

مركز جاذب، دون قطب»^(١٧). في الواقع، جرى تركيز نحو العام ١٣٨٠ لصالح البندقية، ثم في أنفير سنة ١٥٥٠ - ١٥٦٠، ثم كان عود إلى المتوسط لصالح جنوى، نحو ١٥٩٠ - ١٦١٠. وستسيطر امستردام اعتباراً من القرن ١٧ لمدة قرنين تقريباً، وما بين ١٧٨٠ و ١٨١٥ ستكون للندن مركز الاقتصاد/ العالم، وفي عام ١٩٢٩ سينتقل هذا المركز إلى ما وراء الأطلسي ويتموضع في نيويورك هذه المرة.

مع لندن كمركز، طويت صفحة من التاريخ الاقتصادي، «للمرة الأولى سيدعي الاقتصاد الأوروبي العالمي، بعدما هزّ العوالم الاقتصادية الأخرى، السيطرة على الاقتصاد العالمي والتمهي معه من خلال عالم سيزول فيه كل عائق أمام الانكليزي، أولاً، ثم أمام الأوروبي أيضاً»^(١٨). منذ عدة سنوات يجري الحديث عن تركيز جديد في اتجاه المحيط الهادي. فالولايات المتحدة واليابان، القويتان على شاطئ الهادي، صارتا بطريقة ما قطب الثورة التكنولوجية الثالثة، بحيث إن التقارب المحتوم، الذي يشمل أوروبا، يتجسّد في هذا الواقع الجديد الذي يسميه جون نزييت الشراكة الأميركية/ اليابانية (US-Japan Inc.)^(١٩).

لكن ماذا يجب أن يقصد بمفهوم جذر (paradigme)؟ يقول ت. كوهن «يمثّل الجذر جملة المعتقدات، القيم المعترف بها، والتقنيات التي تكون مشتركة بين أفراد جماعة معينة»^(٢٠). إن الجذر هو رؤية معينة للعالم يشارك فيها أفراد جماعة من العلماء والمفكرين. وعندما تتغير هذه الرؤية بسبب الطفرات العلمية، يتبدّل أيضاً العالم الذي يعيش فيه العلماء، فيرى هؤلاء الأشياء بكيفية جديدة، أي بنظرة جديدة. فالتغيير الجذري هو بمثابة تحرك وانتقال من كوكبة إلى أخرى، ليس فقط لأن الأشياء تتكشف بنحو مختلف، بل لأن ردودنا واستجاباتنا تعمل بشكل مغاير. «فما كان قبل الثورة (العلمية) في نظر رجل العلم بطأ صار أرنب. وما كان يراه كأنه الوجه الخارجي لعلبة، منظوراً إليه من فوق، يترأى له كأنه وجهها الداخلي، منظوراً إليه من تحت»^(٢١). من هنا، تبدل في الإدراك البصري الذي يصاحب كل تبدل في الجذر. مثلاً، حين ينظر العالم المتبني نظرية كوبرنيك إلى القمر، لن يقول: «كنت أرى كوكباً، والآن

أرى قمراً تابعاً»، بل سيقول: «كنت في الماضي أعتبر القمر كوكباً، لكنني كنت منخدعاً». بين الأمس واليوم، يندرج تبدل النظرة الذي هو تصويب الإدراك السابق، وهذا التصويب هو الآن المحور الذي تدور حوله في آنٍ تغيرات المقولات الإدراكية وتحولات المسالك النفسية. «رأى لافوازييه الأوكسيجين هناك حيث كان بريستي يري الهواء المتغير، وحيث لم يكن الآخرون يرون شيئاً على الإطلاق». واعتباراً من اللحظة التي اكتشف فيها الأوكسيجين، «صار لافوازييه يعمل في عالم مختلف»^(٣٣).

ولئن كان، من جهة ثانية، يفسر أرسطوطاليسي ما تأرجح جسم معلق بخيط، كأنه سقطة معاقة، لا يستطيع بلوغ راحته وسكونه إلا بعد حركة معقدة، فإن غاليليه يرى فيه الرقاص، أي جسماً قادراً على تكرار الحركة ذاتها إلى ما لا نهاية. إن الرقاصات المتأثرة بفكرة الاندفاع «ولدت من شيء ما يشبه كثيراً انقلاباً في رؤية الشكل، ناجماً عن جذر جديد»^(٣٤).

هذا الجذر الجديد، سيجد شكله الفلسفي في فكر ديكارت، حيث باتت العناصر كلها شديدة التمفصل. وانطلاقاً من هذه اللحظة، يبدأ طور صراع الجذور وحوار الطرشان، بين هؤلاء المؤيدين للجذر الجديد الذين سيحولون العالم، وأولئك الذين ظلوا خارجه وراحوا يتعرضون لتأثيره في كل الجهات والمعاني. بعض أمثلة عن حوار الطرشان هذا، تتناسب العوامل مع بعضها البعض وفقاً لتماثلات باطنية، سيقول المدافعون عن الجذر القديم. وفي المقابل، سيرد الجدد قائلين إن العوالم تتعكس كعالمين مختلفين: عالم السعة وعالم الفكر مرتبطان بشكل مستقل. وسيشدّد الأولون على أن للعالم غائية، نظراً لأن الغائية والعلية تتطابقان في لا تناهي الوجود. آه، كلا! سيردّ الجدد، فمن الممتنع الكلام على غايات هناك، حيث يصدر كل شيء عن الله صدوراً ضرورياً محتموماً، كنتيجة لعلته. مع ذلك، سيرد الأولون، لا يمكن انكار واقع أن الأذواق والألوان، ملازمة لطبيعة الأشياء. وهذا ضلال أيضاً: فهي لا تتعدى كونها طرق تفكير ذاتية، فما تسمونه شيئاً ليس إلا الامتداد الذي لا خواص له، سوى قابلية التجزؤ، قابلية التشكل، الحراك. والخيلات (Images) التي نراها

في الأحلام، في تأملاتنا، هل هي أوهام أيضاً؟ إنها أسوأ من ذلك. إنها خيالات غامضة، أفرزها هذان الخيال، وما زال حوار الطرشان هذا متواصلاً حتى أيامنا. على أن الفكر الديكاري، ليس آخر جذر للحدثة، فهو يمثل المعرفة الماثورة في نظر ميشيل فوكو - وهذا ما سنعود إليه في الكتاب III. وهذه المعرفة ستعاني تحولاً في القرن ١٩، سيحدث تحول من النظام إلى التاريخ، بحيث إن فكرة التطور ستحل محل فكرة التمثل والسكونية، مفتوحة على هذا النحو جذر الأزمنة الجديدة.

نيوتن هو الذي جسد الحلم الديكاري. فقد استوعب أعمال سابقه، مثل كوبرنيك، كيبلر، غاليليه وديكارت، ودجها في توليف قوي، فصار بذلك التتويج العلمي للجذر الجديد. ومنذ ذلك الحين استقر كل شيء حتى نهاية القرن ١٩. إن العالم يعمل كآلة تحركها قوانين ثابتة، وصار هذا النموذج قوياً ومقنعاً، لدرجة أنه آل إلى التأثير ليس فقط على العلوم المحضة، بل أيضاً على العلوم الانسانية. ويظهر ف. كابر، في كتابه «The Turning point»^(٢٤) تطبيقه في مفهوم الحياة الآلي في علم الأحياء، وفي النموذج الاحيائي / الطبي، في علم النفس، في العلوم الاقتصادية. باختصار، في كل المنظومات التحولية. صحيح أننا نشهد منذ ثورات القرن العشرين العلمية الكبرى (نظرية النسبية، الميكانيك الكمي) بروز جذر جديد يمتاز، عن الجذر القديم، بكونه عضوياً، كلياً وبيئياً. ولكن، إذا كان تأثير هذا الجذر الجديد محسوساً، نسبياً، في العلوم كلها، وإذا كان مصحوباً أيضاً بطفرة تكنولوجية ذات أبعاد عالمية، فمن الثابت أيضاً أن الجذر القديم ما زال فاعلاً، ولم ينقرض مع ذلك.

IV

في زمن الصراع بين الجذرين

هكذا تعيش الحضارات غير الغربية في زمن جذرين أو مثالين: جذرها والجذر الناجم عن الثورات العلمية الكبرى (المعرفة الحديثة في نظر فوكو). والحال، كيف سيتكيف الإنسان الذي يعيش في عالم تتجابه فيه المثل والنماذج المتعاكسة، ويتوافق مع حالة الأمور هذه، دون أن يعاني خطر الوصول إلى مسالك عبثية، مستحيلة؟ كيف يحتوي الموجة التي تقتحمه من كل الجهات؟ ذلك لأن تصادم الجذرين يتضمن في الصميم أيضاً الصراعات التي تعارض الحداثة والتراث، بقدر ما تعارض التفاوتات الوجودية، النفسية والجمالية، (انظر الكتاب III).

فمن جهة، تبدل، قفزة نوعية، تقدّم وتحول؛ ومن جهة ثانية جاذبية اجتماعية، جمود تقليدي، تحجر وفكرية احترازية. ولا يوجد بين هذين الجذرين / المثالين فوارق من كل نوع وحسب، بل يوجد أيضاً توازٍ معاكس من الوجهة التاريخية. مثال ذلك أن باز^(٢٥) قد توصل في مقارنة بين البوذية والمسيحية إلى استنتاج شديد الأهمية، حين قارن المراحل المتعاقبة وبين أن تطورها قد جرى في اتجاه معاكس. فإذا كانت البوذية قد بدأت كرد على الأرثوذكسية البرهمانية، فإنها سرعان ما صارت فلسفة (مذهب سرقا ستيفادين حول الناقلة الصغيرة)، ثم صارت غيبّات مع الإبداعات الكبرى للمهايانا، وأخيراً صارت

ديناً طقسياً مع التانترية. في المقابل اجتازت المسيحية الطريق المعاكس: عند ولادتها كانت دين خلاص، ابتكرت فلسفة مع آباء الكنيسة، ثم صارت غيبيات، ومع الإصلاح (أي مع بداية تغير الجذر الطارىء في الغرب) «انتقلت من الغيبيات إلى النقد، ومن الطقس إلى الأخلاق»^(٣٦). إن البروتستانتية هي المرحلة الأخيرة للمسيحية، بينما التانترية هي آخر مراحل البوذية. ولئن كانت المسيحية حركة من التجسد إلى اللاتجسد، فإن البوذية ستكون على العكس، حركة من اللاتجسد إلى تجسد الخيلات^(٣٧). بكلام آخر، إن المسيحية تنتهي في علاقتها بالجسد موقفاً «فاصلاً»، في حين تعتبر البوذية في شكلها التان تري، عقيدة «وصل» الجسد والروح، و«تنادي باختبار شامل، جسدي وروحي، ينبغي أن يتحقق في العبادة عينياً وفعلياً»^(٣٨).

إن هذه الفوارق وسواها الكثير، سواء في شكل الفصل أو الوصل، الفردة الروحية أو الذاتية، العلاقات المجردة أو العينية مع الجسد والعبادة والأخلاق، إنما تسجل تبديلاً جذرياً وتشدد على عدم قابلية التوافق بين عالمين متعاكسين إجمالاً تعاكساً جذرياً. والحال، لم يدرك الشرقيون هذا التفاوت إلا في القرن التاسع عشر، لا سيما في عصر التوسع الاستعماري واللقاء مع قوة الغرب الصناعية. لقد كانت ردات الفعل متنوعة في مواجهة هذا التحدي وشهدت عدة مراحل، لنأخذ هنا مثال العالم الإسلامي.

في استيعاء العالم الإسلامي تجاه الهيمنة الغربية، غمّز مرحلتين: النهضة والثورة. يرى أركون أن المرحلة الأولى تمتد من نهاية القرن التاسع عشر حتى ١٩٥٠، والثانية ما زالت متواصلة وربما بلغت ذروتها في ثورة إيران الإسلامية، والحال، كيف جابه العالم الإسلامي هذا التحدي الجديد؟

أول ما أدهش المسلمين كان واقع التأخر، فاعتباراً من ١٨٨٠، ستغذي هذه الموضوعية كوكبة كاملة من المفكرين المسلمين، وستكون أحد المواضيع الثابتة للصحيفة العربية، العروة الوثقى، التي أسسها سنة ١٨٨٤ في باريس، الإيراني جمال الدين الأسد أبادي، الملقب بالأفغاني (١٨٣٩ - ١٨٩٧)، والمصري محمد

عبد (١٨٤٩ - ١٩٠٥). هذه الصحيفة، ستدعو المسلمين للكفاح ضد الظلامية، والتعصب، والجمود الاجتماعي، ولمحاربة الهيمنة الغربية على بلاد الإسلام. ومن هنا، فكرة الجامعة الإسلامية، العودة إلى الأصول، النهضة الإسلامية؛ وسوف يسترجع رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥)، أحد المقرّبين من عبده، ويستأنف في مجلته الإصلاحية المنار (القاهرة، ١٨٩٨) الموضوعات الكبرى، التي تناولتها مجلة العروة الوثقى؛ وسيحذو حذوه السوري عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٩ - ١٩٠٢) وكثيرون سواه. نلاحظ في تلك الموضوعات اتجاهين: نقد ذاتي (موضوعة التأخر) وسعي لتبرير الفكرة القائلة إن المسلمين يعانون من شوائب كثيرة، نظراً لأنهم أفسدوا الدين القويم، بحيث صار الإسلام «مثل فروة مقلوبة»^(٣٠).

سيكون جمال الدين على رأس تلك النهضة (التجّد). ففي محاضرة ألقاها في قاعة البرت في كلكتا، دخل في صميم الموضوع بقوة «منذ ٦٠ عاماً، أنشأت الحكومة العثمانية وخديوية مصر مدارس علمية دون أن تتمكن من أن تنجي منها أية فائدة، لأن الفلسفة لا تدرس فيها. والحال، فإن غياب الفكر الفلسفي. يجعل من المستحيل التوصل إلى نتائج في الفروع العلمية الأخرى... ويمكننا التأكيد على أن شعباً مزوداً بروحية فلسفية، حتى وإن كان جاهلاً للفروع العلمية الأخرى الخاصة، يجد نفسه بفضل هذه الروحية الفلسفية، مستعداً لاكتساب المعارف في مجالات علمية مختلفة»^(٣١).

يقصد جمال الدين بروح الفلسفة العقل الجديد؛ أي العقل العلمي، ويندهش من كون المفكرين المسلمين «المتربعين أمام مصباح كان طوال الليل» لا يتساءلون أبداً: «لماذا يدخن هذا المصباح عندما يكون مسدوداً»^(٣٢). باختصار، إنه يتهمهم بقلّة فضولهم وحبهم للإطلاع، وبسليبتهم ولاوعيهم البليد، لأن الغربيين لا يدخلون إلى ديارنا بقوة السلاح فقط، بل يدخلون من خلال شبكة كاملة من الابتكارات العلمية: خطوط سلكية، سكك حديد، آلات بخارية، حاكيات (فونوغراف)، آلات تصوير، مجاهر صغيرة وكبيرة. «هل من المعقول

أن تتجنبوا كل هذه المسائل، لأنها غير مذكورة في الشفاء ل ابن سينا، أو في حكمة الإشراق لشهاب الدين السهروردي»^(٣٣)؟

وسيتناول مفكرون آخرون، كالمصري عبده، والهندي محمد إقبال (١٨٧٦ - ١٩٣٨) والسوري الكواكبي (١٨٥٤ - ١٩٠٢) موضوعة التأخر والجمود، حين قابلوها بفكرة التطور والترقي، الموروثة عن الغرب. سيعاد تقويم فكرة البدعة (التجدد) التي أداها الاسلام بوصفها «أسوأ الأمور»، وسيحكى عن فتح باب الاجتهاد (مجهود التقرير الشخصي) المغلق منذ أمد بعيد^(٣٤)، وسيذهبون إلى حد تسويغ التقدم، حين قرروا أن فكرة الترقى كانت واردة في القرآن. ولكن باستثناء عدد قليل جداً من المفكرين الذين تجاسروا على القول بقطع حاد مع الماضي، فإن معظم ردود الفعل ستظل محافظة على عبادة الصور والمفاهيم القديمة. إن جمال الدين، رغم توافقه مع رينان حول عدد كبير من النقاط الأساسية^(٣٥)، سيكون رائد النضال في سبيل جامعة اسلامية؛ وإن محمد إقبال، المنشعب من برغسون، ونيتشه، سيقوم ببهلوانيات فكرية واسعة لكي يوفق بين التقدم والقرآن^(٣٦)، وإن عبده سيبحث عن النماذج المثلى في العصر الذهبي للإسلام القديم. وبالإجمال، قاموا بالتفريق التالي: الإسلام بريء، لكن المسلمين هم الفاسدون، الإسلام فروة مقلوبة، اقلبوها وستسير الأمور كلها. والحال، في هذه المرحلة الأولى من التلاقي، ظل المفكرون غامضين، على الرغم من وعيهم لرهانات المسألة. هناك شعور ببذور الانحلال، ورؤية للإنحطاط، ولكنهم يريدون في آن واحد أن يتقدموا وأن يحافظوا على ما يكبح هذا التقدم بالذات. يبحثون عن كبوش محرقة، ينقلون المسألة إلى المؤسسات التي تجسّد الدين، بدلاً من نقد الجذر الذي يحمله، لئن كان الإسلام مريضاً فسبب ذلك أن المعرفة قد صارت الاحتكار الوحيد لمعممين جهلة يزرعون في كل مكان الفتنة والظلامية.

لكنهم لا يستسلمون لهذه البيئة، وهي أن الجذر الجديد لا يمكنه أن يقوم إلا على حساب الجذر القديم. والقول إن الاسلام غير متوافق مع العلم، وإن هذا الأخير متضمن فيه ولو بصورة احتمالية، لا يحل مسألة الإسلام ولا مسألة

العلم، لأن بين الاثنين يقوم حقل عدم قابليتهما للتفاعل، الحقل الخالي تماماً. وهذا يعادل أيضاً تجريد الاسلام من أساطيره، مع إعادة إضفاء القداسة على لغة العلم. إن نهضة الإسلام، حتى ولو افترضنا أنها ممكنة في شكله البدائي، لن تستطيع أن تكسب بقفا اليد - وهذا مع أفضل تمنيات العالم -، هذا الانقلاب المعرفي الذي أجاز الثورة العلمية منذ ٤ قرون.

عندما تنتقل من مرحلة النهضة إلى مرحلة الثورات، يتبدّل سجل الأشياء. فهناك تفاصيل بين هاتين المرحلتين وتواصل في آن، يعود التفاصيل إلى تبديل اللغة، لأن تلك المرحلة كانت فكرية. يلفتنا أركون بكل فطنة وينبها إلى «أن المقصود ليس إدراك الواقع الموضوعي - كما يدأب الفكر العلمي على ذلك - بل تحويل الظروف الحياتية التي لم تعد تحتل، إلى ظروف مؤهلة، حتى تغدو أفضل»^(٣٧). بكلام آخر، ارتدت المرحلة الانتقادية للفكر - المناضل، خصوصاً في أثناء المرحلة السابقة، ضد جمود الثقافة -، عن مهمتها المعرفية العلمية لتغدو اجتماعية سطحية، وقامت الحلول الجاهزة مقام طراوة وحيوية التساؤلات الأولى، ومقام نقد الساعات الأولى قامت فكرية القتال. ولكن هناك تواصل أيضاً، لأن موضوعة الأصالة، أصالة التماذج/ القدوة (المسلمون الأوائل)، والعودة، والعلم الكلي العجائبي في القرآن، وباختصار لأن كل «أسطورية» الاسلام التي كانت تغلي بالأمس في خيال مفكري النهضة سترتدي في الحاضر بعداً هذيانياً، سنشهد - بعون الأصولية - انفجار اللاوعي الجمعي بكل إرهابه وبؤسه.

لكن ماذا حدث بين هاتين المرحلتين؟ أعتقد أنه كان بينهما استبطان للجذر الجديد، ولكن بطريقة منحرفة وناقصة، وأعني بذلك أن مفكري النهضة، على الرغم من حبهم للإسلام ومن ثنائيتهم القيمية، قد طرحوا أسئلة جوهرية. لقد قارنوا، تنبهاً للتفاوت، وضعوا الإصبع على المشاكل الواقعية وبالأخص امتنعوا أن يكونوا أهل حقد وضغينة. قام القصيمي (المصري)^(*) بهجوم منظم على

(*) إذا كان المقصود عبد الله القصيمي، فهو غير مصري أصلاً، بل سعودي، ولا نعرف إن كان قد حصل على الجنسية المصرية أم لا. (م).

الموروثات الثقافية للمسلمين الذين، بسبب خضوعهم غير المشروط لله، يرفضون أن يروا هيمنة قوانين الطبيعة والسببية العلمية، لكنهم مع وعيهم التام لنفوذ الغرب، نجدهم بين ثقافتين، ونميزهم بكونهم نظروا إلى مجابتهن بعيون جديدة، في المقابل، يعتبر منظرو الثورة «متفرنجين» أي أن الجذر المهيمن (بعض حداثة ملتوية) جرى استبطانه، بطريقة انحرافية، في جهازهم الإدراكي، لكن أية حداثة يقصدون؟ ليست حداثة المرحلة الانتقادية التي تفكر، تسأل، بل آخر بقايا حثالات نسخة ماركسية تقدّم تفسيرات تبسيطة للأمور، على شكل باقات معارف حاصرة. ربما يمكن القول إن النظرة الجديدة حديثة، لكنها نظرة ملتوية/ متبورة، بطريقة ما، لأنها تظل منقطعة عن حفريات المعرفة التي سبقتها. فهي لم تبرز، كما يقول فوكو، بعد سلسلة انقطاعات معرفية، بل ظهرت كما يظهر آخر طلع (rejeton) دون ذاكرة عن نسبة متبورة، منذئذٍ، سيكون أعمى. تاريخياً، هذه المرحلة هي فترة ما بين المرحلتين، مرحلة الاختلالات من كل نوع، الاختلالات المعرفية والنفسية والجمالية على حد سواء. وفي الواقع، حين يتشابك الجذران (القديم والجديد)، سينتهيان إلى تشويه بعضهما: سيجري قياس الحداثة بقياس التراث، والتراث سيعاني بدوره من الالتواءات العنيفة للحداثة. من هنا أيضاً، طلاق بين هذه النظرة المتبورة والمواقف النفسية التي تشرطها. وبما أن هذه المواقف لم تتكيف تدريجياً مع التبدلات والطفرات المعرفية في الأزمنة الجديدة، فإنها ظلت راسية في النظرة التعارفية القديمة للأشياء.

مذ ذاك، سيعيشون في زمن الجذرين اللذين يتنابذان ويتدافعان، فأحدهما يبني ادراك النظرة المتبورة، بينما يصبُّ عليه الثاني المضمون الانفعالي للمعتقدات. وسيسود الظن أنهم يتقلّدون خطاباً أصيلاً، هناك حيث لا يحملون سوى جنون هذيان؛ ويعتقدون أنهم مسلمون طاهرون ومتصلبون، في حين أنهم ليسوا أكثر من نتاج فرعي لآخر خطابات القرن التاسع عشر البائدة. إن حالة شريعتي (المتوفى سنة ١٩٧٧) - أحد منظري الثورة الإسلامية (١٩٧٩) - ما هي إلا مثل من أبرز الأمثلة. فإلى حد ما، شريعتي أقل وضوحاً من جمال

الدين . بين الرجلين مسافة مئة عام، ومع ذلك يخرج السلف الشهير من هذه المقارنة منتصراً . فجمال الدين يطرح أسئلة لاهبة لم تكذبها الأوضاع الراهنة حتى اليوم، وشريعتي يملك أجوبة جاهزة لكل الأسئلة، فإذا تكلم الأول عن روح علمية لا بد من اكتسابها مهما كلف الأمر، فإن الثاني يضرب لنا المثل الصارخ عن رؤية ولا أضيق . وكل شيء يُفسَّر عنده بعبارات ماركسية، بنى تحتية وفوقية، برؤية ثنائية للتاريخ، وبشلال من التماهيات المسلسلة . إن فكر شريعتي خليط من الجذرين، اللذين يتقيا أحدهما الآخر . لقد قلنا في مكان آخر: «لئن خلط هيجل المجرد من كل الجهاز المفهومي لمنظومة العقل وظهورية الروح، مع ماركس مجرد من النظرية، من الفعل على إطلاقه (Praxis)، مع إسلام مبتور من قطبيه، المبدأ (origine) والمعاد (Retour)، فإننا نحصل على حساء دسم، تبدو فيه جميع العناصر المجمعة، منزوعة ومجردة من كل مضمونها الوجودي، نظراً لأنها فصلت عن القاعدة التي تكونها وتسوغ علة وجودها، إن فكراً كهذا لا يمكنه أن يكون سوى فكر بلا موضوع، وبالتالي، فكر بلا مكان»^(٣٨) .

تشكل حالة الأمور هذه سلوك المثقف / المنظر للعالم الاسلامي، الذي ما برح ممزقاً بين اقتناعاته السياسية ومسالكة النفسية . إنه طلاق مؤلم يجعل من منظرينا ليس مفكرين انتقadiين، بل شبكات متقاطعة تمضي بلا استرخاء إلى غزو طواحين الهواء، وذلك على حساب هذا الحس السليم الذي يشكل بعد كل حساب، ومع الاعتذار من ديكارت الذي لا يعجبه ذلك، الشيء الأقل تشاركاً وعموماً في العالم .

الكتاب الثالث
حق الاختلاط

I

وعى متأخر^(١) عن الفكرة

في الواقع، سينتهي الأمر بالجذرين إلى أن يشوَّها بعضهما: التراث سيشوَّه الحداثة، كما أنه سيعاني من انحرافات والتواءاتها. تاريخياً هذه المرحلة هي فترة ما بين المرحلتين، فترة الاختلالات على أنواعها: المعرفية، النفسية والجمالية. ينصب الفكر على سلسلة تفاوتات تنعكس في تكوُّن الأشياء والكائنات. وهناك مرتكزات اجتماعية للاختلالات التي يحملونها. وفي المحصلة، لا يفلت من نفوذها، أية طبقة اجتماعية، أية جماعة اجتماعية / مهنية، أي خطاب فكري (ايدولوجي)، وإننا لنجدها مجدداً في أفكار المثقفين، في سلوك الجماهير النفسي، في هوامات المنظرين الفكريين الهذيانة، كما أننا نلاحظ إصرارها لدى الممثلين الأشد تزمناً للطبقة المسماة تقليدية: أي العلماء. في الواقع لا يبقى في منأى عن هذه الاختلالات أي قطاع من قطاعات الحياة الاجتماعية، الجمالية والفكرية.

إن المسألة عويصة، وسأحاول تحليلها، مع الإضافة على الفور بأن هذا التحليل ليس شاملاً. إنه تفسير ممكن بين تفسيرات كثيرة. لنطرح أولاً، ثلاثة أسئلة: من أين تأتي الاختلالات؟ كيف تعمل؟ وما هي طبيعتها؟

السؤال الأول ذو نسق وجودي، فهو يتصوَّر الثغرات التاريخية والتبدل الجذري؛ والسؤال الثاني يتعلق بالمعرفة (الإبيستمولوجيا)، أي بالتحويرات التي

يقوم بها الفكر لكي يرتق الجذور المختلفة والمفتقة؛ والثالث موضوعه دراسة أنماط المعارف الهجينة التي تشكّل، معاً، عالم واقع جزئي ولا مكان.

قلنا إن الاختلالات تصدر عن تفاوت وجودي (Ontologique)، فقد فرضت نفسها بُنى الحداثة على كل ثقافات المعمورة، وألحقت أضراراً بكل المجالات، وانتهى بها الأمر إلى التغلغل في جهازنا الإدراكي. لقد صارت نظرتنا تاريخية، مثلما قامت مقام ثقافتنا في الماضي الوسيط، العلوم الانسانية الحديثة المنحدرة، هي ذاتها، من ارتجاجات معرفية كبرى في القرن التاسع عشر. لكن هذا التغلغل لم يكن حصيلة فكر واع: فقد جرى اكتساب العلوم الانسانية دون أن يعانى من الداخل المسار الذي ولدها. إن عاقبة هذه الحلقة الناقصة، وخيمة وخطيرة. وهي تزداد تفاقمًا بقدر ما يكون الوعي، الذي لم يتبدّل داخلياً، «متأخراً» عن الحداثة. فهذه، بدلاً من أن تنور الوعي، تعميه وتبلّده. زد على ذلك أن الوعي لا يزال مطبوعاً تماماً بجذر الرؤى الأولى ومثالها. إنه يضرب جذوره في تجربة الوجود، حيث لا تزال تعمل طبيعة الرموز التماثلية، وحيث تعاني النظرة من ضيق المثل الثقافية القديمة، وحيث تسبح النفس في تعارف العلاقات الاجتماعية. في كل الأشياء التي تنهل من طرق الوجود حيث الفرد، أي الأنا، يُمحي لصالح ذات جماعية، وحيث مواصفات الأمكنة والأزمنة لا تزال جامدة إلى أقصى حد، وحيث طرق الوجود تتوحد مؤتلفة في نوع من الحضور المشترك.

كل هذا ينعكس سواء في مستوى المعتقدات أم في مستوى العادات. فهو يشكل، على مستوى المعتقدات نوعاً من واقع غيبي، متميّز في آن، من الواقع واللاواقع، «واقع غيبي يُقبل بلا وعي، بوصفه هوية الأمة»^(١). ومثال ذلك المفاهيم الأساسية للهندوكية، مثل موكشا (الخلاص) دراما (الشرعية، النظام) كرما (القدر الذي يسيّر أدوار التقمصات) ويوغا (طريق التحرر)، التي يحملها كل هندوكي في ذاته كأنها جزء لا يتجزأ من كيانه. من جهة ثانية، يترك هذا الواقع الغيبي نفسه يُستدمج، منذ بدء الحياة، بوصفه نوعاً من الحلم، لأنه يستند إلى التجربة المعاشة، ويعتمد على سلطة الرؤية، على الحدس بدلاً من

التحليل والمعرفة العلمية. وفي الواقع، تأتي الحداثة، المنبثقة من سياق تاريخي آخر، لترتكز بالتحديد على هذا الواقع الغيبي شبه المتحجر الذي يترجم نفسه أيضاً من خلال الكتلة الضاغطة للتقاليد والعادات المتأصلة، وما هذه بشيء آخر سوى التبلور الاجتماعي لهذا المجال العقلي؛ من هنا عدم قابليتها للاختراق من جانب أي تغيير. يقول ييريز غالدوس في موضوعها بكل حصافة: «في مرتبة الفكر، نشهد الانتصار الآني للفكرة الصحيحة على الفكرة الفاسدة؛ ومذذاك،، نعتقد أن الفكرة يمكنها التغلب بسرعة على العادات، لكن العادات، التي خلقها الزمن، بكثير من الصبر والبطء اللذين لزمناه لصنع الجبال، لا يستطيع أن يحطمها سوى الزمن وحده، حين يعمل يوماً بعد يوم. إن الجبال لا تحطم بضربة من الحراب»^(٣).

ربما يمكننا إجراء تفريق، مثل كانط، بين الشكل والمضمون، والافتراض أن الأشكال هي أفكار جديدة، صدرت عن طفرات معرفية، وجاءت لتتضاف إلى وجودية الخيالات القديمة، مغيرةً بذلك إدراك العالم، عاكسة نظرة جديدة، دون أن يتوافر للوعي (الواقع الغيبي التقليدي) الوقت الكافي للتناسب معها. وإذا شئتم، يغدو مضمون الوعي «مادة» الإدراك، بحيث يكون العالم الممثل حديثاً من حيث الخطاب، لكنه قديم من حيث مضمونه، إذ تدخل بين الاثنين الهوة التي تفصل وعياً مما قبل غاليليه عن خطاب مما بعد هيغل، والحصيلة نظرة مبتورة تؤلّه عالم الخيلة والتراث، كما تظل على بعد ألف فرسخ من نسابة الأفكار المستوردة.

يندرج التأخر بين الوعي الذي ينهل من باطن النفس الجماعية، والفكرة الخارجة من تحولات التاريخ. والتأخر هو ملتقى نظامين معرفيين لا تزال طرق انتشارهما متعاكسة جذرياً؛ فمن جهة، استرسال الأسطورة، وانعكاسها القوي على مستوى التاريخ، ويبحث عن السببية والتعيين؛ ومن جهة ثانية، نزوع إلى العمودية، إلى التماهي، إلى التجوهر. «وبينما يميّز الفكر العقلاني بين الخيلة والواقع، يوحد الفكر الأسطوري، تناظرياً ورمزياً، بين الواقع وخيلته، ويؤلّه خيالاته الخاصة، ويمنح جسداً وحياة حقيقية للأشخاص والحوادث الذين

اخترعهم، ويضعهم في مكانه وزمانه، اللذين هما، وليساهما، مكاننا وزماننا»^(٤).

لئن كان الوعي قد انكمش تاريخياً أمام الأزمات التي مهدت للحدثة، فقد تمكن من التكيف مع المستجدات، ولكن حين لا يكون الحال هكذا، فإن الأفكار الجديدة، حين لا تجد أي مرسى لها، إنما تجمد فوق صميم لا يمكن سبر غوره تاريخياً، ويكون من جهة ثانية غير جاهز إطلاقاً لاستقبالها، وأقل استعداداً لاستيعابها؛ من هنا، حتماً، الهوة التي هي نوع من جرح مفتوح في ضميرنا ووعينا. ولزيد من توضيح هذه الظاهرة الخاصة، سأستعين بنظريتين مأخوذتين عن كاتين متباينين تماماً: يونغ وفوكو، الأولى تفسّر نفسياً ما لا تلاحظه الثانية إلا معرفياً، كنتيجة للطفرات الأثرية، لأن هذا التفاوت، حين ينظر إليه من زاوية الاقتصاد النفسي، يكون نقصاً في التعويض (نكوص)، وحين ينظر إليه من زاوية الانقطاعات التاريخية، يكون الهوة الفاصلة بين كتلتين عقليتين مختلفتين، تشوّهان بعضهما بعضاً، وهما تتشابكان بلا انقطاع.

١ - انفكاك سحر العالم^(٥)

كتب يونغ، مفسراً انفكاك سحر العالم: «شيء طريف، بدأ العالم باكتشاف القوانين الفلكية، إذن بتراجع للإسقاط الأكثر بعداً، إلى حد ما. كانت تلك مرحلة أولى خارج الارواحية التي كانت تطبع العالم بطابعها. وتالت الخطوات [...]، ثم قام علمنا الحديث بتحقيق الاسقاطات إلى درجة لم تعد ملحوظة، لكن حياتنا اليومية لا تزال تفرّخ الاسقاطات [...]»^(٦). ثم يضيف: «منذ أن سقطت النجوم من السماء وشحبت أنبل رموزنا، تسيطر على اللاوعي حياة سرية. لهذا السبب عندنا اليوم علم نفس ونتحدّث عن اللاوعي، ربما كان هذا كله وما زال أيضاً نافلاً في عصر أو في شكل حضاري يمتلك هذه الرموز، لأن هذه هي روح الأعلى وطالما أنها تعيش يكون الفكر في «الأعلى» [...]. لكن لاوعينا الخاص بنا يخفي روحاً قريباً من الطبيعة، مموهاً إذا جاز القول، يصاب من جرائه بالاضطراب. لقد صارت السماء في نظرنا فضاء شاملاً، خالياً، ذكرى جميلة عما كانت عليه بالأمس»^(٧).

لكن كل تراجع للإسقاطات يولّد ظاهرة تعويضية، لذا «كلّما صارت قطعة مهمة من الوعي بلا قيمة، وبالتالي كلما تلاشت، ظهر تعويض في الوعي من جهة ثانية»^(٨). في الغرب، كل تراجع يقابله بديل. زد على ذلك، إن عمل الانسحاب والتراجع قد تصاعد من جراء الإنجاز الكبير للانتقاد، هناك تقويم سلبي كامل لتاريخ الفكر، نكتشف تحولاته في عدة أشكال: العدمية المنفعلة والفاعلة (نيتشه)، انسحاب الوجود (هيدغر)، تأليل العقل (أدرنو، هوركهيمر)، أو فقدان الهالة (بنجامين). هذا معناه أن القاسم المشترك بين كل هذه الرؤى المخفّضة لقيمة الروح تصبّ كلها في نقطة مركزية: انسحاب شيء ما كان هنا بالأمس، لكنه لم يعد موجوداً اليوم. مع عصر الأنوار، حل العقل محل الوحي، مثلما قامت النزعات والنزوات الأساسية مقام السلطان الاستبدادي لذلك الوحي.

تحدث هذه الإبدالات اهتزازاً كاملاً للمقولات، سواء على مستوى المعرفة أم على مستوى طرق الانتاج والعلاقات الاجتماعية. هذا، فضلاً عن كون الحداثة رأت النور من خلال العمل التفكيكي للنقد. كل تبدّل عميق كان يليه استيعاء مقابل: هناك دائماً تناسب وتشاكل بين الفكرة والوعي الذي يتمثلها. إن الأمر على العكس في المدارات الثقافية غير الغربية، حيث بقيت ظاهرتا انسحاب الإسقاط والتعويض، متباعدتين. أولاً، لم تُعان الانسحابات الاسقاطية فيها قط، كأنها تجارب تاريخية، معاشة داخلياً، بل كصدمات آتية من الخارج. كما أن البدائل، داخل ثقافة مؤتلفة، التي تأتي للتعويض عن انخفاض قيمة جزء من الوعي، ليست اجرائية/ عملانية فيها، نظراً لأن الوعي، المتجمّد من جراء مثال مختلف جذرياً، يتجاوزه ويتعداه، إنّما ينحط وينهل من مخزونات الذاكرة الجماعية. هنا، يوجد اختلاف بين انسحاب الاسقاط والتعويض، نظراً لأن الشكل والمضمون لم يتطور بطريقة متوازية ومتشاكلة.

مثلاً، إذا كانت ذاتية الكوجيتو الديكارتى - أي الأنا المقطوع عن رموزه - تجاوبها، بالضرورة، موضوعية نظام واقعي هندسي، مفرغ من أشكاله الجوهرية، كما هو حالنا، فإن الأنا يظل هشاً. إنه يشكو من نقصين: فهو ليس

الكوجيتو الواعي، الكامن في مستوى خطاب الذاتية، ولا هو الأنا الجماعي المرشح للفتح في تجربة التفرد الروحي كما تظهر، مثلاً، في حكايات فلاسفتنا التعبيرية في صورة ملاك أو أشكال جمودية / كهنوتية أخرى. يبقى أنا، أنا متخلفاً، مرتناً، إن بالنسبة إلى الحداثة أم بالنسبة إلى التراث.

في النهاية، سلبية الأنا هذه هي حصيلة الثقافة ومعايير السلوك الأخلاقية. مثلاً يوضح العالم النفسي الهندي سودي كاكار^(٩)، أن مثال الحكمة الهندوكية لا يستلزم أنا موطداً، ذاتاً مستقلاً معتمداً على أنا أعلى استبدادي، بل على العكس يستلزم أنا سلبياً، خليقاً بالتراجع نحو صهر الأصول، ذكرى الطفولة السعيدة. زد على ذلك أن العلاقة التفاعلية للولد الهندي الذكر مع أمه، تسير تحديداً في اتجاه إضعاف الأنا؛ فحتى سن الخامسة، يكون الولد مدلاً، مغنّجاً، محمياً جداً، إذ يبقى كلياً في عهدة أمه. بعد خمس سنوات يعاني الولد فطاماً قاسياً، ويحل الأب محل الأم. «في الهند، يكون التباين بين الولد وأمه (وبالتالي بين الأنا والهو) أضعف بنوياً ويطراً في وقت متأخر عن ظهوره في الغرب، مع هذه النتيجة: تلعب المسارات العقلية المميزة لتفاعل الطفولة الأولى، دوراً أهم نسبياً في شخصية الهندي الراشد»^(١٠)، إن ما يقوله كاكار عن الطفولة الهندية يصح أيضاً في الطفولة العربية أو الفارسية، وإن تفوّق المسارات العقلية المسماة أولية، يعمل بشكل يجعل العلاقات التعارفية تكتسب فيها أهمية أكبر من المسارات الثانوية المفهومية التي يعبر عنها باللغة. من هنا، ميل عندنا إلى التواصل من خلال الانقطاعات، الصمت والاستراحات؛ من هنا أيضاً، نزوع طبيعي إلى الطرق الفكرية السحرية والأرواحية، مع هذا الاستنتاج بأن انطباع الأفكار الحديثة الآتية من الخارج يقابلها في الحاضر مضمون غير مناسب، آت من عصر سابق نفسياً، عصر ما زال يتكلم اللغة «الأرواحية» للأساطير والرموز.

٢ - أثريّات التأخر التاريخي

ربما يكون من المفيد الآن أن نتناول هذه المسألة نفسها في ضوء أثريّات وحفريات العلوم الإنسانية، التي أخرجها للملأ ميشيل فوكو في كتابه الكلمات

والأشياء. تقوم منهجية فوكو على استخلاص الخلفية المفهومية الكامنة وراء ولادة العلوم الانسانية؛ على معرفة «أية خلفية قبلية تاريخية، وعلى أساس أي عنصر من الايجابية، تمكنت الأفكار من الظهور، وتمكنت العلوم من التكوّن، والتجارب من الانعكاس في الفلسفات، والعقلانيات من التشكل، ربما، لكي تتفكك وتتلاشى عما قريب»^(١). إن المقصود، هكذا، هو اكتشاف القبلات التاريخية، سوابق مختلف مراحل الفكر، وتسليط الضوء على «حقلها المعرفي»، وكشف معارفها، أي التصوّرات المغفلة واللاواعية التي جعلتها ممكنة. ومن هنا، ليس فكرة تاريخ، بل فكرة حفريات أثرية للعلوم الانسانية. فهذه الحفريات ستلقي الضوء على الانقطاعات المعرفية التي دوزنت تاريخ الفكر العربي منذ النهضة.

يميّز فوكو ثلاثة انقطاعات كبرى: المعرفة ما قبل الماثورة (ما قبل الكلاسيكية)، معرفة النهضة التي سادت حتى منتصف القرن السابع عشر؛ المعرفة الماثورة التي استهلّت العصر الماثور (نحو منتصف القرن ١٧)؛ والمعرفة الحديثة التي طبعت عتبة الحداثة وسجلتها في مطلع القرن ١٩؛ لقد وجّه فوكو بحثه نحو ثلاثة «وقوعات»: الحياة، العمل واللغة، أي الأبعاد الحياتية، الاجتماعية / الاقتصادية والثقافية للإنسان، واعتبر أن حقول المعرفة متناظرة في أعماقها إلى حد بعيد.

والحال، فإن فكرة «الركن المعرفي» بوصفه السابق التاريخي للمعرفة، ليست جديدة، ولفوكو أسلاف مشهورون. في التراث الفرنسي، بوجه خاص، كان هناك، أولاً، ميراث غاستون باشلار الذي كانت موضوعته من القطع أو الفصل المعرفي، أساسية بالنسبة إلى فوكو وألتوسير. هناك أيضاً إسهام لا يقل أهمية، للفيلسوف الفرنسي، الروسي الأصل، الكسندر كويري، الذي درس التمفصلات المعرفية لمختلف حقبات التاريخ: مثلاً، الانتقال من العالم الوسيط المغلق إلى عالم الأزمنة الحديثة اللامتناهي. أخيراً، هناك تأثير المدرسة البنيوية. هذا معناه أن فكرة «بنية تحتية فلسفية» منسجمة مع شتى مراحل الفكر الغربي كانت تلوح من قبل في الفضاء، قبل أن تستدمج في حفريات فوكو للعلوم

الانسانية. من ناحية ثانية، كان هيدغر قد صاغ فكرة التمثل الموسومة كطريقة معرفية من طرائق المعرفة الماثورة، في دراسته «لمفاهيم العالم وتصوّراته»^(١٢) (Weltbild)، حيث كان الوجود يتحوّل للمرة الأولى، عند ديكارت، إلى موضوعية التمثل والحقيقة، إلى يقين هذا التمثل بالذات. فضلاً عن ذلك، كان هذا اليقين، بوصفه معرفة الأزمنة الحديثة، يقوم على خمس ظواهر متلازمة ومتوافقة: العلم، التقنية، الفن من حيث هو جمالية، الثقافة، وانسحاب الآلهة (Entgötterung)؛ إنها حوادث متوازية كانت تفسّر، جماعياً، ظهور العالم كخيلة (Bild) أي كـ «لوحة للموجود في كليته»^(١٣).

كما أن فكرة المعرفة (epistémè) عند فوكو تظهر تشابهات مدهشة مع مفهوم الجذر/ المثال (paradigme)، الذي طوّره توماس س. كوهن، مؤرّخ العلوم الأميركي، في كتابه الشهير: بنية الثورات العلمية^(١٤). لقد استلهمت بوجه خاص جذر كوهن لوصف التفاوت الوجودي (راجع الكتاب II)، الذي يضع الغرب، منذ مطلع الأزمنة الحديثة، في مواجهة حضارات المعمورة الأخرى. لأن جذر كوهن يفسّر، في نظري، وبشكل رائع جداً، التبدّل في نظرة الإنسان الغربي العلمية عند فجر الحداثة. إلا أن معارف فوكو تختلف عن جذر كوهن، على الأقل في ثلاث نقاط جوهرية: ١ - إنها لا تستند فقط إلى العلم، بل تتضمن الاقتصاد والفيلولوجيا؛ ٢ - إنها لا تتطابق مع أسس واعية كتلك التي يعرضها نيوتن، بل تقع، خلافاً لذلك، دون مستوى الوعي؛ ٣ - إنها ليست نموذجية مثل جذور كوهن «التي تعمل كنماذج عينية يتقاسمها الباحثون في ممارستهم العلمية»^(١٥). باختصار، المعرفة أكثر من «باطن» الفكرة، إنها «شبكة مفهومية» تتضمن كل الأنماط المعرفية في حقبة معينة. غير أن المفهومين متشابهان في أمرين: الأول، كونها لا يقبلان السبر؛ فالمعارف مثل الجذور مختلفة عن بعضها؛ الثاني، إنها تموت مثل الجذور عندما يطرأ تغيير مفاجئ على الطبيعة الثقافية^(١٦). ولئن كان فوكو ميّالاً إلى اعتبار المعارف بمثابة متصخّرات، أي

(*) ترجمة د. علي نعمة - دار الحداثة، بيروت. (م).

ككتل معارف موحدة، حيث ترتدي الانكسارات بين الواحدة والأخرى رداء ملغزاً، فإن كوهن يعتبر التبدل الجذري مطابقاً لمراحل أزمة، حيث يمكن للجذرين أن يتعايشا وحتى أن يكافحا بقوة في سبيل البقاء. وبالتحديد نستنتج اليوم حالة مماثلة في صراع الجذور، الذي يضع الغرب في مواجهة العالم الثالث. يبدو لي في هذا الصراع الدارويني من أجل بقاء الأقوى والأفضل، أنه لا بد من الاعتبار أن الحداثة هي التي ستغلب في نهاية المطاف، حتى وإن شهدنا في أيامنا رجوعاً ظاهرياً للقدسي والديني. لقد استعملت مفهوم الجذر في معنى باطن الفكر عند فوكو، ولكن مع تجريده من طابع الكتلة المتصخرة الذي يعزوه إليه فوكو، ومن هذه الزاوية، يكون تأويلي أقرب إلى جذر كوهن.

بالتالي، إذا كانت حفريات المعرفة مدينة في الغرب لطفرات مفاجئة، حيث إن مجموعة اهتمامات ومشاغل تركت محلها لمجموعة أخرى، مكونة على هذا النحو كتلة معرفية تباينية جديدة، فماذا ستغدو عندئذ معرفة الحضارات اللاغربية، التي لم تعانِ مثل هذه الانقطاعات، فكان عليها أن تجابه آخر تحولات المعرفة الحديثة، قرابة النصف الثاني من القرن ١٩؟

لنقل، أولاً، إن أسس الحضارات التقليدية تشابه كثيراً ما أسماه فوكو المعرفة ما قبل الكلاسيكية، فهذه تقوم على أربعة تماثلات: التوافق، التنافس، التماثل والتعاطف^(١٦). تشكل هذه الرؤية «نثر العالم»، وهو نثر تترابط فيه الكلمات والأشياء داخل نسيج من التشابهات. إن التماثلات يمكنها أن تؤثر بعدة طرق، وتستطيع أن تجري إما «من الأقرب إلى الأقرب»، مكونة بذلك حلقات سلسلة الوجود (توافق)؛ وإما في المسافة: خالقة تشابهات غير متماسة كما هو حال انعكاسات المرآة (تنافس)^(١٧)؛ وإما بالتماثل الذي يضخم التماثلات من خلال علاقات متشابهة، ترجع كل شيء إلى نقطة تماثل مميزة ومشبعة: الإنسان؛ وإما أخيراً، بالتعاطف الذي، كالرعشة، يعبر الكون كله ويلعب في أعماق الأشياء، إن التعاطف يربط الكون بأمزجتنا، فهو مبدأ استيعاب وتقريب للأشياء، الأكثر بعداً. إنه يجتذب الثقلاء نحو الثقل، الخفة نحو الأثير، يجعل الأشياء متماثلة/متماهية، ويزيل هويتها. ولو لم توازن سلطة التعاطف بالتنافر، لكان العالم قد

تحول إلى كتلة الذات المؤتلفة: إنه معلق «بفعل التعاطف على جاذبية مغناطيس واحد»^(١٨).

لمعرفة التشابه علامة فارقة: التوقيع. ففي كل مكان من العالم وضع الله علامته وتوقيعه. هنا، «كانت العلامات والتماثلات تجري على التوالي وفقاً للولب ليس له حد»^(١٩). وهكذا، العالم مغطى بعلامات لا بد من فك رموزها، «إذن المعرفة تفسير»، انطلاقاً من العلامة المرئية إلى اللامرئي، إن المعرفة تأويل للألغاز، بكلام آخر التنبؤ والتبخر هما تأويل واحد^(٢٠).

اعتباراً من القرن ١٧، انهارت هذه المعرفة، ومحل التماثلات كقانون للفكر ما قبل الحديث، حل التمثيل كطريقة معرفة جديدة. من الآن فصاعداً، لم يعد الفكر يتحرك في منطقة التشابه. فلم يعد التماثل فيها شكلاً معرفياً، بل صار مصدراً لخطأ العقل وللخيالات الملتبسة، وحين فقد التماثل مصداقيته، ظهرت ألعاب خداع العين، الوهم الكوني، مسرح الازدواج، البطل الجديد لهذا العالم الالتباسي هودون كيشوت السرفنتي. وهذا رسم «الوجه السلبي لعالم النهضة»^(٢١). وهو عالم لم تعد فيه الكتابة نثر العالم، ولم تعد التماثلات مصدراً لليقين، بل صار كل شيء يسير نحو الهذيان والسخرية. وبما أن سحر العالم قد رحل، صار من المستحيل فك الرموز، لأن «الكتابة والأشياء لم تعد تتشابه»^(٢٢). دون كيشوت ضاع بين الأشياء؛ لقد «رهن نفسه في التناظر»^(٢٣). هكذا، كان دون كيشوت أول المنجزات الحديثة، إذ رأينا فيه، كما يقول فوكو، «العلة القوية للتأهيات والتباينات التي تتلاعب، بلا حدود، بالعلامات والتشابهات»^(٢٤).

لم تعد اللغة في هذا العالم تأويلاً للألغاز والحيل الكيماوية، بل صارت أدبياتها؛ فالتماثل الذي كان في الماضي من انجاز الخيال الخلاق، صار حالياً هذياناً وجنوناً. «لن يعود نشاط العقل يقوم على تقريب الأشياء من بعضها. [...] بل على العكس بات يقوم على تمييزها: أي اكتناه هوياتها»^(٢٥). وبالتالي، قام التحليل مقام الهرم التناظري. فمن الآن وصاعداً، سيوضع كل

تناظر على محك التحقق، وبما أن عدد التناظرات محدود، صار من الممكن القيام بتعداد كامل للأشياء، وتصنيفها في فئات، وتمييز اختلافاتها وماهياتها. كانت البنى الأساسية للمعرفة الماثورة، المقايسة أي «علم القياس والنظام الكلي»، والتصنيف الذي هو أساس الترتيب والجدولة التي نجد مثالها الأفضل في علم النبات عند: Linné. «إن الجدول هو مركز المعرفة في القرنين ١٧ و١٨»^(٣٧). «وهذه العلاقة بالنظام جوهرية بالنسبة إلى العصر الماثور، بقدر ما كانت العلاقة بالتأويل أساسية بالنسبة إلى عصر النهضة»^(٣٨). وكما كان التأويل معرفة التناظرات التي كانت تصهر الكلمات والأشياء في نثر العالم، كذلك سيكون الترتيب بواسطة علم التصنيف مكوناً لعلوم الماهيات والتباينات.

هذه الطريقة في اكتناه العالم، يسميها فوكو، على غرار هيدغر، التمثّل أو التمثيل: «في العصر الماثور، ما من شيء معطى إلا وكان معطى للتمثّل»^(٣٩). وهذا التمثّل يضع نفسه بعيداً عن الذات، يزدوج ويفتكر بذاته. وخير مثال تصويري لهذا التمثّل، يكتشفه فوكو في لوحة «التاليات» (Les Mèlines) التي رسمها فلاسكيز (١٦٥٦). فالرسام مائل فيها وهو على وشك النظر إلى المشاهد. أما النماذج الحقيقية، ملك اسبانيا وملكتها، فيظهران فيها مواربة من خلال خيلة معكوسة في مرآة موضوعة في صميم الرسم. يرى فيها فوكو رمز التمثّل: إنها معرفة تكون فيها الذات مبعدة، موضوعة على مسافة، وإذا شئت، تكشف اللوحة «تمثّل التمثّل»، أي طريقة معرفية يجب أن يبقى ما يدور حوله التمثّل، مستوراً، ومن بين كل الأشخاص المائلين، يعتبر الملك والملكة الأكثر تجاهلاً، ولكن بقدر ما «يكونان متراجعين إلى حالة ستر جوهرية، ينظمان حولهما ويأمران التمثّل كله؛ فهما اللذان يواجهان، ونحوهما يستدير الجميع، ولعيونهما يجري عرض الأميرة في ثوب العيد»^(٤٠). إن الزوج الملكي هو موضوع التمثّل، ولكن لا يمكنه أن يكون مائلاً، إن هذا الإبعاد للإنسان هو الذي سيزول مع حلول «الفضاء المعرفي» الجديد/ الحديث، الذي سيبدأ ظهوره مع بداية القرن ١٩.

منذ ١٨٠٠ حدث تحوّل من «النظام إلى التاريخ»^(٤١). ولئن حل التاريخ محل

النظام، وحل التطور الخطي محل التمثل الفضائي للعالم، فإن الإنسان ظهر أيضاً كموضوع للمعرفة. واعتباراً من القرن ١٩ سيفرض التاريخ قوانينه على تحليل الانتاج، تحليل الكائنات المنتظمة والجماعات اللغوية. باختصار، «التاريخ» أفسح المجال أمام التنظيمات التناظرية، مثلما كان النظام قد فتح السبيل أمام الماهيات والتباينات المتعاقبة^(٣١)، في مجمل هذه الظاهرة الممتدة من ١٧٧٥ إلى ١٨٢٥، يمكن التفريق بين مرحلتين. في المرحلة الأولى، ١٧٧٥ - ١٨٠٠، لم تبدل طريقة وجود الوقوعات، لكن الكلمات والكائنات والثروات اكتسبت في المرحلة الثانية طريقة وجودية ستكون متنافية مع العالم التمثلي للمعرفة الماثورة. اللغائي بوپ، الأحيائي كوفييه، والاقتصادي ريكاردو وفجروا أشكال المعرفة الماثورة، لم تعد اللغة والحياة والعمل تعتبر كمواصفات للوحة ثابتة/ جامدة، بل صارت ميادين خاصة، خاضعة لتاريخيتها الذاتية. في كل مكان، تغلغت فعالة جديدة: الوظيفة تفوق العضو في علم الأحياء، اللغة تنقُض على علم الاشتقاق وتطور الجذور، مثلما راح الاقتصاد يدرس دورة السلع والأموال، بعبارات المسارات الانتاجية. وفي حركة طفرة أثرية حفزية كهذه «ظهر الإنسان مع مكانته الغامضة كموضوع لعلم، وكذاذ يعرف»^(٣٢).

هكذا، طلع الإنسان من هذه المكانة الخالية، التي كان يشغلها في لوحة فلاسكيز: فبعدما كان ملكاً مستبعداً، صار كائناً كاملاً الحضور. لقد استوطن قلب العالم، ومنذئذ ترابط التاريخ وعلم الإناسة، «فلا يوجد تاريخ، (عمل، انتاج، تراكم ونحو) للأكلاف الحقيقية) إلا بقدر ما ينتهي الإنسان ككائن طبيعي»^(٣٣). لم تكن المعرفة الماثورة تسعى إلى عزل مجال خاص/ مخصص للإنسان، وفي المقابل صارت المعرفة الحديثة إناسية بكل صراحة. ففيها الإنسان فاعل وقابل للمعرفة. تناهيه يشكل جوهر الحداثة: «تجاوزت ثقافتنا عتبة اعترافنا بحدائثنا، يوم جرى التفكير بالتناهي من خلال مرجعية خاصة به، لا تتناهي»^(٣٤).

إن إنسانوية النهضة وعقلانية الماثورين اهتمتا حقاً بالإنسان، وخصصتا له

مكانة مميزة، لكنهما لم تفتكراه أبداً. وربما قيل إن الإنسان لم يكن موجوداً قبل نهاية القرن ١٨، إذ في نظر الفكر الماثور، ذلك الذي يوجد لأجله التمثل، ذلك الذي يعقد، بكيفية ما، جميع خيوط التمثل المتشابكة في لوحة، لم يكن موجوداً ولا حاضراً فيها أبداً^(٣٦). صحيح أن الطبيعة البشرية قد جرى درسها في القرن ١٨، ولكن ما كان يجري تحليله آنذاك، إنما كان طرق التمثل التي كانت تميز المعرفة كاستذكار وخيال وذاكرة، ولكن منذ أن شهدت المعرفة الحديثة تكون طريقة تحليلية (أنالوطيقا) للتناهي البشري، «صار الأمر يتعلق بتسليط النور على شروط المعرفة، وبتوليدها انطلاقة من المضامين الواقعية المقدمة للمعرفة»^(٣٧). ولا يهم إن كانت هذه المضامين متموضعة داخل الإنسان أو خارجه. فهنا، المكانة المركزية ممنوحة ليس للإنسان الطبيعي، بل للإنسان كـ «واقع كثيف» و «فاعل سيد لكل معرفة ممكنة»^(٣٧). ولئن كان الإنسان غائباً في المعرفة الماثورة، فإنه على العكس صار مربكاً في المعرفة الحديثة، لأن هذا الاستعداد المعرفي الجديد ينسى أن الإنسان الذي يعتبر تناهيه محور كل علم ومعرفة، هو ذاته شخص تافه في جوقه المعارف. زد على ذلك، أن الإنسان كائن متناقض، «ازدواج غريب من الواقع والتعالى»^(٣٨)، وهذا شرط يستحيل تنفيذه، نظراً لأن الإنسان لن يتمكن أبداً من التحرر من ازدواجياته، وأنه يبقى، بعد كل حساب، كائناً فانياً، زائلاً ذات يوم «مثلما يحَي وجه رمل عند طرف البحر»^(٣٩).

٣ - الفصام المعرفي

ماذا تستطيع هذه الخلاصة، المكثفة جداً، أن تعلمنا من الكتاب الرئيسي لميشيل فوكو؟ لئن كنت قد توقفت قليلاً عند شتى معارف الطريقة الحفرية/ الأثرية، فذلك لأنها تظهر الإنزلاقات الباطنية والانكسارات داخل الفكر الغربي في مراحل مختلفة، حتى وإن بدت قاسية جداً ومتصلبة في نظر البعض. هذه في رأيي نقطة أساسية بالنسبة إلى الحضارات غير الغربية، لأن معظمها، على الرغم من اكتمالها الهائل في مجالات الروح، لم تشهد هذه التحولات والانقلابات الزلزالية الفكرية: والحقيقة أنها ما عاشت العصر الماثور، ولا العصر الانتقادي،

ولا العصور الحديثة؛ لقد عانتها بالوكالة وبالواسطة. كانت الحداثة نتيجة مسار رائع، فريد من نوعه في تاريخ البشرية. فالثقافة الغربية بعد جمود دام ألفين إلى ألفين وخمسمائة سنة (من الألف الأول ق.م. إلى القرن ١٨م) «ظهرت فجأة، كما يقول ليثي - ستروس، كأنها بؤرة ثورة صناعية لم يظهر معادل لها في الماضي، من حيث اتساعها وشموليتها وأهمية نتائجها، سوى الثورة النيوليتية وحدها»^(١). ثورة هائلة أدت إلى تغيرات نوعية في علاقة الإنسان بالطبيعة، وهي تغيرات مكنت بدورها ظهور انقلابات أخرى، «إن صورة تفاعل متسلسل، أطلقت أجسام صاهرة، تسمح بأن تتمثل هذا المسار الذي تكرر حتى الآن مرتين، ومرتين فقط، في تاريخ البشرية»^(٢).

لئن كانت الثورة النيوليتية (العصر الحجري المصقول) قد صارت منذ أجيال وقفاً على الانسانية بكاملها، فإن الثورة الصناعية الحديثة جداً، المنبثقة من عصر الغرب الثقافي، لم يجر استبطانها بطريقة واعية في ثقافات أخرى، بحيث انها تشكل حضورها الجديد في العالم، وذلك على قدر ما كانت تقدم كل مواصفات ظاهرة خارقة، سواء من حيث التحولات التي كانت تحدثها في طرق المعيشة أم في الطفرات التي كانت تولدها في الروح وفي طريقتنا لاكتناه الواقع وفهمه.

عندما تعين على الحضارات اللاغربية أن تجابه، في منتصف القرن ١٩، هذا الغول الجديد للأزمة الحديثة، كان هذا الغول قد بلغ ذروة توسعه ونموه وعانى معظم طفراته وتحولاته المعرفية.

فقد تم حلول النظام محل التماثل، ثم جرى زعزعة النظام، بدوره، من قبل التاريخ. وفي الحاضر، كان أمام الحضارات اللاغربية باقة كاملة، جيدة الصنع، من علوم انسانية، على رأسها علم الاناسة (الانثروبولوجيا)، وحيث تشكل التاريخية البعد الأساسي للإنسان. وكانت الأسلحة المعرفية الوحيدة التي تملكها هذه الحضارات الكهله لمعرفة هذا العالم الجديد، من طراز المعرفة ما قبل الماثورة، فقد كانت لا تزال تعيش في عالم ما قبل الحداثة، ما قبل غاليلي، حيث كان التماثل (القياس) والتعاطف والعلاقات السحرية بين الجرم الأصغر

والجزم الأكبر، والتطابقات الخفية بين الأشياء والكائنات، والتأويل السحري والديني، هي الأسس العليا للعالم ولمعرفة الوجود. باختصار، كانت لا تزال تعيش في العالم المنسحر بالإسقاطات. ومذذاك، كانت ممكنة كل الاختلافات السيئة، كل الالتباسات، كل الهذيانات، وهذا ما وقع بشكل حتمي.

في الصراعات الجذرية، التي لا تزال في أيامنا تضع العالم الثالث في مواجهة الغرب، وصل الأمر إلى وضع وسط حيث تتشابك معرفتان تشوّه كل منهما الأخرى. إنه وضع صراعي، ما بين المعارف، هو الذي نشأ وراح يسير خلافاً لرؤية فوكو التصخرية، الذي كان يقول: «في ثقافة ما وفي فترة معينة، لا يوجد أبداً سوى معرفة تحدد الشروط الممكنة لكل علم»^(٢٢). في المقابل، يبين اختبارنا المؤلم أن المعارف، مهما أمكنها أن تكون مختلفة وغير قابلة للسبر. ليست مع ذلك، وبحكم الانقطاعات التي تميزها من بعضها، كتلاً متصخرة، تستبعد بعضها بعضاً في حقبة معينة، بل يمكنها أن تتعايش وحتى أن تشوه بعضها بعضاً، هكذا يمكن أن نعيش مرحلة تأخرات معرفية^(٢٣) يتجابه في خلالها أصحاب معرفة قديمة مع رواد الشبكة المفهومية الجديدة للعالم، ومثال ذلك النقاش الذي دار في القرن ١٧ بين پاسكال والأب نويل حول الخلاء، وجعلهما يتعارضان. كانت انتقادات پاسكال تخضع، بلا مواربة، للأسس الموجهة للمعرفة الماثورة، أي التحليل والنقد، بينما كان الأب نويل، المستلهم الرؤى الأرواحية والتمائلية، يستند إلى مذهب الأمزجة والعناصر الأربعة^(٢٤).

يمكننا أيضاً أن نكون أمام وضع خاص، حيث تعمل المعرفتان المختلفتان داخل شخص واحد، فتعطي بصره وتشل ملكاته الانتقادية. وهذا بالتحديد هو السلوك الفكري لعدد كبير من مفكري العالم الثالث. هنا تتباين «أماكن» المعارف. إنها تقع في مجالات إدراكية للوصول متنوعة كيميائياً: النفس وكل مجموعة الصور والخيالات السحرية التي ترافقها، والعقل المخفوض إلى فقر المفهوم المتزهد، كتب أوكثافيو باز، واصفاً مزايا هذا الفصام المعرفي عند المثقفين الأميركيين اللاتينيين: «إن الأفكار من الحاضر، والمواقف هي مواقف الأمس. كان أجدادهم يقسمون بالقدس توما، وهم لا يحلفون إلا بماركس؛

ولكن بالنسبة إلى هؤلاء وأولئك، كان العقل سلاحاً في خدمة حقيقة»^(٤٥).

في هذه الملاحظة الحصيفة للشاعر والمفكر المكسيكي، نشاهد مرحلتين مختلفتين: الأمس واليوم اللذان يسجلان طريقتين مختلفتين للمعرفة وللوجود في العالم، حتى أنها يلحظان معرفتين تاريخيتين، تؤثر إحداهما في السلوك النفسي، الانفعالي والمواقف التقليدية، بينما الأخرى تقولب الأفكار الحديثة الآتية من الخارج. وبين الاثنتين تندرج الهوة الفاصلة: أي التمزق البالغ الخطورة على قدر ما يقسم الوجود إلى قسمين متنافرين، لا يمكنهما التحاور دون حصر وخفض، نظراً لانعدام أي ممر يسمح بالربط المنسجم بينهما. هذا لا ينفي احتكاكهما قط، إذ تنبجس من مكان احتكاكهما الخلاسي، تحديداً، كل أنواع الاختلالات التي يجري من خلالها، مثلما يجري لشاشتين عاكستين موضوعتين في مواجهة بعضهما بعضاً، تشوههما من جراء تشويش خيالاتهما وصورهما المتبادلة، ولذا يترتب أيضاً، وخلافاً لبنى المعارف المتباينة التي تظل متشاكلة نسبياً، ويتوجب هنا انعدام أي تناظر بين الشكل والمضمون، مع العلم أن هذين الأخيرين ينهلان على التوالي من معرفتين متنافرتين.

هنا يعمل دائماً جزء، وليس أجزاء أقل، من الوجود وفقاً للتعاطف والتماثل، وتهل من المخزونات السحرية للواقع الغيبي الثقافي، بينما الجزء الآخر يخلط، حين يستلهم إناسة العلوم الانسانية، والفلسفات الاجتماعية، والمادية الجديدة، مثلاً، العقيدة الأخروية مع المذهب الوضعي (Positivisme). على الدوام، تكون نتيجة خليط كهذا، هجينة، ولا يمكنها أن تترق إلا بالتصفيح، حين نستعمل أمثلة فوكو، يمكننا أن نضيف أن عالمي الطبيعة ألدروفاندي وبوفون، وعالم الأحياء كوفيه يقيمون في مكان ما بيننا إقامة سيئة. يندهش بوفون من إمكان وجود «خليط مبهم من أوصاف صحيحة، واستشهادات مسندة، وخرافات غير منتقدة، وملاحظات تدور عشوائياً حول التشريح والأنساب والسكن والقيم الأسطورية لحيوان ما، كما تدور حول استعمالها في الطب أو في السحر»^(٤٦)، عند عالم طبيعي مثل ألدروفاندي، لماذا هذه الدهشة؟ لأن نظرتهم، كما يقول فوكو، «غير مرتبطة بالأشياء من خلال المنظومة ذاتها، ولا

بواسطة الاستعداد المعرفي ذاته. فقد كان ألدروفاندي يتأمل بدقة متناهية في طبيعة كانت مكتوبة، من رأسها إلى عقبها»^(٤٧). وهذا يعني أنه كان يعيش في عالم مسحور.

أما نحن، بينما لا يزال وعينا يعمل في المستوى السحري للرموز، فإن أفكاراً تنبثق من الطفرات المعرفية للأزمة الجديدة. إن عالمنا، الخاص بنا، لم يجر بعد فك سحره تماماً: فالسما لم تفرغ كلياً من رموزها، ولا تزال الإسقاطات مقيمة فيها، وإن كانت مشوهة جداً. وإن مجالنا العام، على الرغم من الأضرار اللاحقة به، لا يزال يأوي الخيلات الملوثة للذاكرة القديمة. وإن عملية الطرد لم تؤد بعد إلى تخصيص الاعتقادات. وها نحن بين فكي كمشاة تأويل الرموز والتاريخانية، معرضين اليوم لكل أشكال الحترقات الممكنة تحيّلها.

لكن هذا الوضع، في شكله التناقضي على الأقل، ليس وقفاً على الشرقيين وحدهم، فبعض الغربيين من ضحاياه أيضاً: أعني الفكرويين، المريدين/ المؤمنين، المتزمتين الجدد والمتمذهبين من كل نوع، غالباً ما كنت أندهش من اللغة القاطعة لهذا المستشرق المتنور، الذي يندفع إيمانه النائم حتى الآن وينفجر فجأة كنيزك، والذي يكتشف حقيقة نبوية بين يوم وآخر، أو أعجب من موقف ذلك الماركسي الغاضب أو ذلك الإرهابي المثلث حتى عنقه بالمصطلح البائد للقرن التاسع عشر. وفي أيامنا نرى مذهبيين من كل الألوان: أصوليون ألمان، صوفيون بريطانيون، سويسريون مسلمون على طريقة غنون^(٤٨)، وفرنسيون مبهورون بـ «إسلام محمود التّبرّة، غني بجاذبياته الثقافية»^(٤٩). إن ما يدهش لدى هؤلاء المتشابكين الجدد (الصلبيين)، هو المضمون العتيق للغتهم. ربما يقال إن هذه اللغة تستوحى مباشرة من فم النبي، وأنها تحطّم بقوة الأوامر والضرورات قوقعة الشكوك كلها، وتكتشف فيها نبوءات عرافين ولآلىء حقيقة نادرة. وبقدر ما يريد خطاب مثقفينا التقدميين أن يكون حديثاً، يكون خطابهم

(*) René Gwénon، مستشرق فرنسي (١٨٨٦ - ١٩٥١)، توفي في القاهرة، من أبرز أعماله:

مدخل عام إلى دراسة العقائد الهندوكية؛ (م).

احتفالياً بكل ادعاء وغرور. هنا يمكننا قلب صيغة أوكتافيو باز، ونقول في موضوعهم:

الأفكار من الماضي، المواقف من الحاضر. كان أجدادهم يحلفون بفلاسفة الأنوار، وهم لا يقسمون إلا بالأنبياء.

هنا أيضاً، يأتي خطابٌ ديني ليلتصق فوق خلفية نفسية حديثة تماماً. زد على ذلك أن معظم هؤلاء المتتمذهين «يفضلون أن يعيشوا وأن يمارسوا الاسلام في أوروبا، لا في الأقطار الاسلامية»^(٩). لأن العيش في البلدان الاسلامية، هناك حيث تهب ريح الأصولية الجارفة، يستلزم على الأقل إعادة قولبة كاملة للسلوك النفسي وتحولاً جذرياً كاملاً للماعون وللعادات التي كونت، منذ عدة أجيال، البنية النفسية للغربي. عبثاً يحاولون التزيّ بالزيّ الشرقي، ويكررون طوال اليوم عبارات قدسية بالعربية، ويفخمون عبارات حكمية، ويرجعون في آخر كل حقن إلى القرآن، ويتزودون منه بزيادة آمال عريضة، ويجدون ألف سبب لإدانة المادوية الغربية المرعبة، ويؤس مسيحية منكمشة روحياً مثل أديم الحزن، فهم مع ذلك يريدون أن يظلوا في ديارهم، يتدثرون حتى آذانهم بدثار الديمقراطية «الشيطنانية»، في حمى دولة «علمانية» قانوناً، تضمن لكم حرمة جسدكم (habeas corpus)، وتحت رعاية الضمانات الاجتماعية المنشطة. صحيح أن الاسلام والشرعية اللذين يمتدحون مآثرهما، هما نعمة سخيّة، شرط أن يظلوا في أوروبا، بعيداً عن قانون الثأر والقصاص، بعيداً عن محاكم الدين العجولة، بعيداً عن دوريات الله المتحركة التي تعتقل النساء، دون سبب، وتنزل بهن عقوبة صارمة، جلدًا بالسياط؛ بعيداً عن هؤلاء الصعاليك الذين لا أسماء لهم، بعيداً عن هذا الرهط الذي لا وجه له، والذي يعتدي على كل محاكم العالم، بقبضات مشدودة ومرفوعة. أجل، هذا كله رائع، ولا يوجد شيء «روحي» أكثر منه، شرط أن يدفع ثمنه المواطنون الأصليون، وليس هم!

هذه المفارقات على الطريقة الغربية تكشف، فضلاً عن انتهازية البعض والشغف الساذج للبعض الآخر، انكساراً - وأكاد أقول انقطاعاً - بين شتى

مستويات الوجود: إنها أفكار تعود إلى حنين العصر الذهبي، ومسالك نفسية تضرب، في المقابل، جذورها في عدة قرون من العلمنة والتعلمن. لأن الروحانية - ولا يجري أبداً تكرارها بشكل كاف - ليست قضية اهتداء، اعتقاد أو اقتناع، بل طريقة وجود في العالم. إنها تنعكس في أصغر حركاتنا وأبسطها؛ في طريقة مشينا وأكلنا، في استعدادنا تجاه الآخرين، في موقفنا التأملي تجاه الزمان، السلطان، القدر، والصمت؛ باختصار، تنعكس الروحانية في كل ما لا يكون فكرة، فكروية، وبالأخص، تكون على بعد ألف فرسخ من دعوة الوصوليين ومن حماس المتعصبين المزمتمين.

II

منحدر التصفيح: التفريج والتأسيـلم

التصفيح هو في الغالب عملية لا واعية، يتم من خلالها وصل عالمين متباعدين لدفعهما في الكل المعرفي المتناسق. يسعى التصفيح إلى سد النقص في التناظر وإلى المصالحة المعرفية بين جذرين متنافرين شكلاً: القديم والجديد، اللذين صارا غير قابلين للسبر والمقايسة، بسبب من الانقطاعات التي تفرق بينهما. يقوم التصفيح على مطابقة الأفكار - التي ليس لها أي مقابل في الوقائع - مع الحقائق والوقوعات الاجتماعية؛ وإلى حد ما، يحوّل التصفيح الواقع إلى خطاب فارغ، لا أهمية لكونه حديثاً أو عتيقاً. ولكن هذا التحويل يتم دون إعادة نظر، دون تراجع، ودون انتقاد. إن التصفيح قشرة طلاء رقيقة، تغطي خشونة الأشياء، ويمكن حكّ سطحها واكتشاف نواقصها وعيوبها. يشكّل التصحيح منمقاً (Décor) يخدع العين بمسطحات متعرجة، أكلها الزمن، وبيمارات اجتاحتها عاديّات التغير، إنه واجهة برّاقة تخفي أنقاضاً، أطلالاً، الجوانب المبقورة من مبانٍ بالية، وجراحاً التأمّت على دغل؛ وهو بهارج تموّه أسماًلاً بالية، ومزقاً غير متناسبة، وأثواباً رثّة.

يمكن للتصفيح أن يجري بطريقتين متعاكستين، لكن نتائجهما تبدو واحدة نسبياً. فهو يمكنه أن يصفح إما خطاباً جديداً (حديثاً) فوق مضمون قديم، وإما، على العكس، خطاباً قديماً (سلفياً) فوق صميم جديد. في الحالة الأولى

سنحصل على التفرنج أو التغرين (نظراً لأن الحداثة ذات ارتباط بالغرب)؛ وفي الثانية، سنحصل على التأسلم - هذه، بوجه خاص، الحالة التي تهمنا. تبدو هاتان العمليتان كأنهما متناقضتان، لكنهما متقاربتان من حيث حل عقدهما: فهما تؤولان معاً إلى الظاهرة نفسها، الاختلال. لكن لماذا؟ لأن «الصميم» الذي نلصق فوقه الخطاب الجديد أو القديم، ليس قديماً ولا جديداً، إنه صميم خلاسي، أي مزيج من الاثنين وحقل انشطار وتشويش. وفي الحالتين، ستكون أمامنا نظرة مبتورة، ملتوية، ذات رؤية متقلبة وطائشة، كما لو أنها تخضع لتأثير مرآة مشوهة.

لا أهمية لطبيعة التصنيف المتحقق، أكان علمانياً أم دينياً، فالنتيجة ستكون بين الاثنين. فلما أن يكون الخطاب «متقدماً» على الصميم المصفتح، وإما سيكون «متأخراً» عنه، لكنه لن يكون أبداً مطابقاً للواقع، نظراً لكون هذا الأخير مشوهاً أيضاً؛ فهو لا يطابق الفكرة التي يكوّنها الحديثون عنه، ولا الخيلة التي تخيلها السلفيون عنه. إن التطابق سيكون معقوداً في الحالتين.

فلنلخص، في سبيل فهم أفضل لشتى المراحل التي تقود إلى الاختلال. قلنا سابقاً إننا نقع معرفياً في الفجوات المنقطعة ما بين عالمين متباعدين، أي ما بين جذرين مثاليين متنافرين، أو إذا شئتم، عند ملتقى معرفتين (هنا استعمل الجذر والمعرفة بلا تمييز) تسجلان على التوالي «سابقتين تاريخيتين» مختلفتين. ولقد أضفنا أن هذين الجذرين يتشابكان في هذا الوضع التعارفي (Interépistémique)، وأنها، شيمة شاشتين عاكستين موضوعتين في مواجهة بعضهما، يتشوهان من جراء تشويش صورهما المتبادلة. كما أننا أكدنا على أن القديم - الذي يسكن ويزين محتوى الوعي المتأخر عن الحداثة - إنما يغدو، في تشابك الجذرين، «مادة» الجذر الجديد، بحيث إن العالم الذي نتمثله هو ما بعد هيغل، من حيث نهضته (بنيته التحتية) الفلسفية، وما قبل غاليليه من حيث مضمونه. أخيراً، رأينا أننا عند ملتقى هذين الجذرين / المثاليين، نشهد اختلالات من كل نوع، وأن هذه الاختلالات تعمل من جهة ثانية، بتصفيح له منحدران: التفرنج والتأسلم. لكن في معركة المعارف هذه، ما هو الجذر

المهيمن الذي يتمكن في النهاية من الهيمنة على الآخر بنيوياً؟ لا شك أنه الجذر الأحداث - أي الحادثة في معناها الواسع جداً -، المصاب إلى حد بعيد بعدوى المضمون السحري للتراث، هو الذي سيستأنف الهيمنة، فهو إذ يُستَبَطَن بتكتم في الجهاز الإدراكي، بفضل الشبكة العالمية التي تدعمه، وسواء شئنا ذلك أم أبينا - وغالباً على الرغم منا - إنما يكون الشكل القبلي لنظرتنا، أو إذا فضّلتكم النظرات التي ندرك العالم من خلالها. فهذا الجذر موجود هنا دائماً، معطى مسبقاً. والحال، بما أن استدماجه ليس نتيجة اختيار، تطور طبيعي أو تعويض مناسب، بل هو نكوص (يونغ)، فإنه يترأى كتفرنج لا واعي. فحتى عندما نؤكد هويتنا الدينية من خلال «أسلمة» العالم، إنما نمارس تفرنجاً بالمقلوب. إن هذا الجذر الجديد المنتشر في الهواء يمكنه أن يظهر قابلاً للتجاهل، بسبب عدوى المضامين التقليدية، ولكنه موجود هنا دائماً، حتى عندما نظن أننا نخلصنا منه نهائياً. إن التحليل المعرفي يكشف، على الرغم من كل أنواع التشويشات، أن بنية الحادثة «الخادعة» تثبت وتشرط معرفتنا للعالم بلا ريب.

فوق ذلك، حينما استندت إلى المضامين الدلالية لحدين متناقضين كالثورة والإسلام، قلت: «أي من الحدين هو الأفعل والأكثر تحديداً؟ الثورة أم الإسلام؟ هل الدين هو الذي يغيّر الثورة، يقدّسها، يعاود تقدّسها؟ أم أن الثورة، على العكس، هي التي تضيف التاريخانية على الدين، تجعل منه ديناً ملتزماً، وباختصار فكرية سياسية؟ [...]، ليست الثورة هي التي تتأسلم لتغدو عقيدة أخروية [...]، بل الإسلام هو الذي يتفكرن، يدخل في التاريخ ليقاتل الكفرة، أي الفكريات المنافسة التي هي، عموماً، فكريات يسارية أفضل جهوزاً، وفي كل حال أكثر توافقاً مع روح العصر. هكذا يقع الدين في فخ مكر العقل: فالدين حين يريد الوقوف ضد الغرب إنما يتغربن ويتفرنج: وحين يريد روحنة العالم، إنما يتعلمن؛ وحين يريد إنكار التاريخ، إنما ينزل فيه كلياً»^(٥١).

على هذا النحو، يجري كل مضمون تقليدي، مهما يكن أصله، ويسيل في المقولات البنيوية التحتية للجذر الجديد، وبنظارات اجتماعية يعاد مجدداً تفسير

القيم التي تظل تاريخياً سابقة للحدث. تشكّل الثورة، العلاقات الانتاجية، التاريخ، الإسهام الإنساني للعلوم، إطاراً جديداً لاستيعاب أي مضمون تقليدي. داخل النطاق هذا، يمكن للمضمون، المتزل من الرؤية القديمة للأشياء، أن يكتسب رجماً جديداً، لكنه لا يكتسب أبداً معنى جديداً. يمكن للأفكار أن تظهر جديدة، أصيلة، لكنها تظل «الرؤية المحلية لسلوك كلي، قوي بقدر ما يمثل شكلاً لاواعياً من التفرنج»^(٥١).

١ - المحراث قبل الثورين

كنا نقول إن التصفیحات تولّد أغلاطاً إدراكية، أحكاماً خاطئة ومواقف ازدواجية/ مانية، إنها تجمّد الحس الانتقادي، تحبس القدرة على التحليل وتتلذّذ بمناسبات وتوافقات وحلول قطعية. وعلى الدوام تنقلب الأفكار على الوقائع، لأن الوقائع تظل «متأخرة» عن الأفكار. وراء الأفكار، هناك قلیات قادمة من تطورات تاريخية أخرى. لنضرب مثلاً، حين درس المؤرخون الإيرانيون الانتقال من الحركة الدستورية (١٩٠٦ - ١٩١١) إلى قیام الدولة/ الأمة (١٩٢٦). توصلوا، تقريباً، إلى هذا الاستنتاج وهو أن ديكتاتورية رضا شاه بهلوي^(٥٢) أجهضت الديمقراطية التي كانت قد بدأتها الحركة الدستورية. هذا القول هو نصف الحقيقة، فهو يستند إلى مقارنات تاريخية متناعمة وما يتعين عموماً أن يترتب عليها من قوانين التوازي. والحال، فإن قانون التوازي لا يعمل إلا في مواضع قابلة للمقارنة، أي بين الحضارات التي عانت المسار التاريخي ذاته والطفرة المعرفية عينها، وإلا فإننا نصل إلى منظورات فاسدة. فلو قارنا الحالة الإيرانية بالمثل الفرنسي المأثور، أدركنا أنه مختلف بنيوياً. فالسلطان قاجار^(٥٣) لم يكن معادلاً للملك المطلق في النظام الفرنسي القديم، وكذلك لم تكن الانتيلجنسيا العلمانية شبه المبتدئة في فارس منظرية لفلاسفة القرن ١٨ الفرنسي. كان وراء الثورة الفرنسية هناك جوقة كبيرة من الموسوعيين، ديدرو، فولتير، روسو. وكان خلف حركتنا ذبذبات غامضة وأمنيات تستوحي التجدد العثماني، الذي كان قد شهد النور في شكل تنظيمات (إصلاح) في القرن ١٩. ولئن كان ظهور الجذر الجديد وركيزته الاجتماعية - البرجوازية - قد سبق في فرنسا الثورة،

ففي بلادنا حدث العكس إذ لم يكن للجذر الجديد أي تمثّل مناسب في الفكر، ولا أية ركيزة منبئية في المجتمع، بل جاء ليلتصق فوق واقع عالم متأخر، شبه قروسطي، وبالتالي غير مهياً اجتماعياً لتحقيق الأفكار الثورية؛ وعليه، في هذا السياق، لم يكن في استطاع رضا شاه، مؤسس إيران الحديثة أن يضع حداً لحرية لم تكن موجودة، في الحقيقة، لا في الوقائع ولا في العقول، بل على العكس كان في استطاعه تزويد البلد بوسائل إقامة مجتمع علماني، حيث كان في إمكان مفاهيم كهذه أن تزدهر وتتفتح.

هذا الحكم المنحرف يتجاهل، أيضاً، أن النقد للمجال العام والسياسي لا يمكنه أن يفضي إلى نقد الدين إلا لاحقاً. ويستلزم نقد الدين طفرة في طريقة التفكير. زد على ذلك أن ديدرو يعلمنا أن الموسوعة وُضعت «لأجل تغيير طريقة التفكير العامة»^(٤٤). لأن الشر الأساسي الذي تجب محاربته ليس الإلحاد، بل الوثنية، ليس الجهل بل الشعوذة. كان بايل (Bayle) قد شقّ الطريق في قاموسه: «لا أدري إن كان من غير الممكن التأكيد على أن عقبات امتحان جيد تأتي من كون الروح خالياً من العلم، بقدر ما تأتي من كونه مليئاً بالأحكام المسبقة»^(٤٥). وسواء تم النقد باسم دين طبيعي، كما هو حال ديدرو، أم تمّ باسم التسامح الذي يعتبر في نظر فولتير وفقاً على العقل ذاته، أم تم أخيراً من خلال تفكيك الغرائز الغامضة التي تغذي، في نظر هيوم، المذاهب والمعتقدات، فإن كل هذه الانتقادات ترمي، باختصار، إلى تعرية ما كان يسميه الانكليزي فرنسيس باكون، قبل ذلك بقرنين، الأوثان الفكرية (Idolae mentis).

مع ذلك، لا ريب أن عصر الانتقاد هو إحدى المراحل الأكثر خصباً - وأكاد أقول الأكثر تحديداً وحسماً - في تاريخ الفكر الذي لم تستوعبه أبداً الحضارات غير الغربية. أولاً، لأن الأفكار الكامنة وراء تحليله كانت تسير في عكس التراث، وكانت تقطع حبال التقاليد العتيقة؛ ثم لأن في النقد كان يجري تحريك معيار الحقيقة، أي نقله من الوحي إلى الفكر الواضح والمعقول، أي إلى الفكر النقدي. كان ريشار سيمون في كتابه: «تاريخ نقدي للعهد القديم»، الصادر

سنة ١٦٧٨، قد حدد النبرة وشددها حين قال مع سبينوزا إن قواعد النقد مستقلة عن الإيمان والعقيدة. لأن الحداثة ولدت من نقد المسيحية، وهذا أمر لم يعرفه الإسلام ولا الديانات الكبرى الأخرى في المعمورة، وطالما أن الصراعات الدينية تحتل مقدمة المسرح، فإن الانتقادات الانسانية تشكل جبهة واحدة مع السياسات، نظراً لأن الخصم المشترك كان لا يزال الدين والسلطات الكنسية التي كانت تجسده. قال رينهارت كوسلك (R. Koselleck): «عالمه دلالة أن يكون في الغالب الشخص نفسه، بودان أو هوبس مثلاً، هو الذي نلاحظه كأنه في وقت واحد ناقد للتوراة و«سياسي». كان لا بد من نهاية الصراعات الدينية، في القرن ١٨، حتى تنفصل المعسكرات: عندئذ امتد النقد العقلاني إلى الدولة أيضاً»^(٥٦).

لكن الفصل بين العقل والوحي كان شيئاً ناجزاً مع بيار بايل الذي كان مؤلفه الجليل، القاموس التاريخي والنقدي (١٦٩٥)، قدّم الترسانة الضخمة التي نهل منها كل فلاسفة القرن ١٨. «جرى التوجه نحو صحة الاستدلال العقلي، وثقيف العقل أكثر من ثقيف الذاكرة [...]». وصار هناك تحسس بالمعنى وبالعقل أكثر من كل ما عدهما»^(٥٧). مع بايل، صار النقد المنشط الخلاق للعقل ذاته. فهو لا يقف فقط عند المجالات الفيلولوجية، الجمالية والتاريخية، بل يتضمن نشاط عقل يوازن بين المع والفضد، يغدو في آن متهماً ومحامياً، ويرتفع بحكم هذه الوظيفة المزدوجة فوق الأطراف، ومهمته على هذا النحو هو توطيد الحقيقة، ليس أمامه سوى واجب واحد: المستقبل. لأن الحقيقة غير معطاة أبداً، ولا بد من اكتشافها بلا توقف، وتطهيرها من الشوائب والأخطاء، وتعريضها من المظاهر الزائفة وطرد الشعوذات منها وعنها. إن الانتقاد مرتبط بالتقدم، «التقدم هو طريقة عيش الانتقاد، حتى هناك - كما هو حال بايل - حيث لم يجر فهمه كحركة صاعدة، بل كتخطيط وانحطاط»^(٥٨).

إن بايل إذ أقام التمايزات ووضعها بطرائق ذكية أكثر فأكثر، إنما توصل إلى طرح الحد المطلق للعقل السيد في مواجهة الدين. «يتعين بالضرورة الوصول إلى أن كل مذهب خاص، سواء عرض بوصفه داخلاً في الكتاب المقدس أم

عرض بشكل آخر، يكون باطلاً، عندما يجري دحضه بمفاهيم النور الطبيعي الواضحة والمتمايزة، لا سيما تجاه الأخلاق»^(٩٩).

يرسم النقد حدوداً أولى، حين يفصل ميادين العقل والدين، لكنه يرسم بذلك بالذات حدوداً ثانية لن يتخطاها إلا في وقت لاحق: حدوده مع الدولة، هذه الحدود - أعني نقد المجال العام - لن تتحقق إلا عندما يكون عمل العلمنة قد حمل جميع ثماره؛ عندئذ فقط سيتمكن العقل من الإقامة والاستقرار الوثير في ملكوت النقد. وهذا الملكوت هو الذي يختصره كائنات بشكل جليل عندما يقول: «عصرنا بوجه خاص هو عصر النقد الذي يجب إخضاع كل شيء له، وحين يحتاج الدين بقداسته والتشريع بجلالته، إنما يريدان عادة الانفلات من النقد؛ ولكنهما يثيران حينئذ شبهات صحيحة حولهما ولا يمكنهما ادعاء وقار صادق لا يمنحه سوى العقل لكل شيء استطاع أن ينجح في امتحانه العام والحر»^(١٠٠).

وإذا كان النقد يتناول، اليوم، جلالة السلطة بلا وجل، فذلك لأنه تمكن من هزم قدسية الدين. لا بد للعلمنة من أن تسبق نقد السياسة وليس العكس. في أوروبا، كانت نهاية الحروب الدينية هي التي أجازت للملك أن يمتلك سلطته المطلقة. لأن العاهل، إذ يضع نفسه، كحكم، فوق الطوائف والمذاهب، إنما يفسح في المجال أمام تفتح فضاء النقد الخاص، النقد الذي وجّه صواقفه أولاً نحو الشعورات والمعتقدات البالية والتعصب. ولم تتمكن البرجوازية، الإبنة الشرعية للأنوار، إلا لاحقاً، وبعدما علمنت المجتمع وخلقت البنى الاجتماعية لسلطانها، من نقد المجال العام للسياسة وإعادة النظر في شرعية السلطة المطلقة.

إن انتيلجنسيا العالم الثالث، خصوصاً انتيلجنسيا إيران (لا سيما في غضون العقود الأخيرة، لأن عقد ما قبل الحرب كان نقدياً أكثر)، وضعت المحراث قبل الثورين. فبدلاً من فصل الوحي والحدثة، تشبث بالدين لتصفّي العقلانية الوظيفية الضئيلة التي كانت تتجسد في النظام القديم. وحين وقعت لاحقاً في

فخ الشيوقراطية (السلطة المتأهلة)، اندهشت ونسبت، كالعادة، غلظتها إلى القوى الغيبية، التي كانت تدبر دمارها في السر. وحين انقضت الانتيلجنسيا الايرانية على أساس النظام القديم، إنما أخطأت المرمى: فقد نشرت، بلا وعي، الغصن التي كانت تقف فوقه، لأن المعارضين العلمانيين للنظام الامبراطوري، إن كانوا يجدون أنفسهم في الكوكبة الثقافية ذاتها التي كان النظام نفسه فيها، فإن الشيوقراطية والحداثة، في المقابل، كانت تفصل بينهما المسافات الفلكية الفاصلة بين المجرات.

٢ - الطييون والخييون

إن المدارك الفاسدة، القادمة من كل أنواع التصفیحات، تترجم نفسها أخلاقياً برؤية الطييين والخييين المثوية. فهناك دائماً، في مكان ما، شخص ليدفع ثمن الفخارات المكسورة. إذن يلزمنا كبوش محرقة: شياطين كبار وصغار، مكائد، مؤامرات من اليمين ومن اليسار، دسّاسون متآمرون، من وراء ظهرنا. فما هو طيب هو ما ينبت هنا، تحت هذه الشمس المحرقة، وما ينبجس عفواً من هذا المزدرع، هو الصحيح، المحلي، حتى لو تبين أنه هو الأكثر شؤماً. هذا الشيء الصحيح / الأصلي يمكنه أن يكون فكرة، شيئاً، طبقة، شخصاً. يمكنه أن يكون «معذب الأرض» في مواجهة «المستوطن الداخلي» أو، بحسب لغة دارجة أكثر، المحروم في مواجهة المتكبر، يمكنه أن يكون الهوية الثقافية - ولا يزال ينبغي أن نعلم ما هو المقصود - في مواجهة الحداثة السالبة؛ كما يمكنه أن يكون دين الأجداد في وجه علمنة مدنسين يعملون لحساب أمير الظلمات، هناك الأسود والأبيض؛ أما النبرات الملونة، لطائف الواضح / الغامض، رمادات الظلال، التدرج اللطيف لأنصاف الألوان، ليس لها أي حق ولا أي مكان. إن هذه العادات الشرسة، هذه الرؤى الحصرية مترسخة في العقول، لدرجة أنها تعاود انتاج نفسها بلا انقطاع في توريات جديدة، وحتى عندما تكذب الوقائع الأسس التي تقوم عليها، يتم الرجوع إليها. هكذا هو حال هذا الاجتماعي، الخارج حديثاً من حبس طهران، والذي على الرغم من فشل الثورات الثقافية، لا يبذل رأيه أبداً،

ويواصل ولوبشيء من الريب، «بحثه عن صيغ أصيلة للتنمية لا تكون منسوخة عن النموذج الغربي والماركسي»^(١١). يا له من هاجس حادثة! إنه «سراب تنمية»، مضلل، ضال، يعمي بصيرة القادة، يشل المجتمع، يخلق «نخبة متغربة»^(١٢). دائماً الوسواس ذاتها، الذرائع نفسها المستفدة حتى الوريد. ولكن أبداً ما من تحليل للحادثة ذاتها، مناسب أقل التناسب، للحادثة بوصفها ظاهرة هائلة في تاريخ الإنسانية. كما لو كان بالمستطاع تناول هذه الحادثة من طرف، وطّيها كما يحلونا، وبطحها فوق سرير بروكيست، وتقصيرها وفقاً لمقاييس أفكارنا، وإسكانها في هوامات «هويتنا الثقافية».

أو هذا هو أيضاً حال هذا الكاتب الآخر^(١٣)، الذي يظهر نفوراً تجاه هذا الاستقطاب نفسه، لا يقل شدة عن نفور سابقه. ففي النظام الإيراني القديم، كان هناك أمتان متميزتان: المستوطنون المحليون والجماهير الهامشية. وعلى هذا النحو كنا نشهد «انقسام المجتمع»، وأساء من ذلك تحويل البلد إلى جنوب افريقيا ثانية. من هنا بروز نموذجين متنازعين من البشر: المستوطن المحلي الذي كانت له ثقافته الخاصة (الغربية) ولغاته (الانكليزية، الفرنسية) ومدارسه وحواضره الكبرى (الولايات المتحدة، أوروبا)؛ ومعذب الأرض الذي كانت له خصوصياته أيضاً. لكن ثقافة هذا الأخير كانت الأقلية المهيمنة تضعها في النفايات. فهذه الأقلية المباعة جسداً أو نفساً للأجنبي، كانت مقلدة خائفة. إنها غربية أكثر من الغربيين، تتعاطى اللغات الأجنبية على حساب لغتها، حتى أن نفراً منها كان يذهب إلى حد اعتناق المسيحية، لكي يزداد تمايزاً عن معذبي الأرض. وهكذا، لم يكن ثمة شيء قادر على مصالحة هذين الشعين اللذين ظلا متعاكسين كشقيقتين عدوين. هذا كله صحيح بلا شك! ولكن ها هو كاتبنا يتوقف عند الثورة وينسى أن يتابع بقية التاريخ. فهو لا يعلم ماذا سيفعل معذبو الأرض عندما يحلون محل المستوطنين المحليين القدامى. هل سيصبحون أكثر خبثاً، أكثر «أصالة»، أكثر قمعاً؟ كل هذا لا يعلمه، وعلى الرغم من كون الكاتب قد وضع مقالته بعد الثورة بعدة سنوات، لا يبوح بكلمة، كأن شيئاً لم يحدث.

أشعر أن هذه اللغة تتمفصل حول عدة محاور أساسية: جدلية المستعمر والمستعمر، الفكرة الكامنة أخلاقياً والقائلة إن كل ما هو خارجي يكون سيئاً بالضرورة، وكل ما هو داخلي يكون جيداً بالضرورة. من هنا شيطنة الجماعة الغريبة، ومن هنا أيضاً الشعبوية المقنعة التي تعبر جميع خطب الهوية كعرشة سرية. الشعب دائماً على حق لأنه كتلة محوَّلة إلى قدر تاريخي. لكن هذا التعارض المتحرّج إلى الأبد، عاجزٌ عن تطوير نفسه، حتى وإن تعيّن على الأحداث اللاحقة أن تسير في هذا الاتجاه. فلا يزال معظم هذه النماذج من المفكرين لاحقاً، بطريقة هجاسية، بوضع تأخري، كما لو أن الزمان قد توقف منذ ٩ سنوات. وحين نصغي إليهم، نشعر أن تسع سنوات من التحركات التي قلبت البلد ما هي إلا وضع مؤقت للأمور بين هلالين. ففي أفق تفكيرهم لا يزال النظام القديم هو «المحاور» الوحيد القابل للإدانة. لكن لماذا؟ لأنه يمسد «الشر»، الغريب، بينما الجديد هو قضية خاصة تدور داخل الأسرة.

كما أن هذه الأحكام صادرة عن عدم أخذ هذه الحقيقة الأولية في الاعتبار، وهي أن استقطاب كل مجتمع على طريق التنمية - أعني كل مجتمع مجاور يحاول استيعاب الحداثة ولو قليلاً - هو استقطاب حتمي. إن ظهور طبقة من البيروقراطيين (نوع من المستوطنين المحليين) المرتنين بالنسبة إلى ثقافة الشعب، يعتبر حتمياً في كل مسار تصنيعي. صحيح، أن هذا الجانب اللاشخصاني يمكنه أن يظهر مثيراً جداً في ثقافة تقليدية، حيث يجمد النظام الاستبدادي القائم كل مشاركة سياسية في السلطة. ولكن لا يمنع أن لا يحول شيء دون هيمنته، نظراً لأن هذه الهيمنة مرتبطة بالذات بطبيعة كل عقلانية تكنولوجية. فوق ذلك، أتساءل عما إذا كان هناك حل وسيط بين التنمية والتخلف. صحيح أن تجاوزات تصنيع متوحش يمكنها أن تكون ذات نتائج كارثية، كما يمكنها أن تؤدي إلى ردود فعل عنيفة وحتى إلى تراجعات، لكن إعادة النظر في كل فكرة تنمية بحجة استبدالها من وصفة عجائبية لا يعلمها أحد، إنما تبدو لي طوباوية جداً. يقول البعض يجب التكيف قبل التبنّي. فليكن! لكن كيف؟ الأمثلة غير متوافرة. فالمثال الياباني - والآن، الكوري، التايواني الخ - يبيّن أن التكيف

يستلزم أول معاناة أو تجرع جرعة كبيرة من التبنّي، بحيث إن الحركة تغدو غير قابلة للرجوع، وإلا فإن انزلاقاً منه الطراز الإيراني يكون ممكناً على الدوام. وبعد، كيف يمكن اجتناب الكسر، الخسائر، المفاسد، الآلام، الصدمات الثقافية في عالم جامد حيث يكون للعادات، والجاذبيات الاجتماعية وزن تجميدي كبير، لدرجة أن هذه الصدمات تؤول إلى ابتلاع كل شيء تماماً كالثقوب السود؟

من جهة ثانية، يعلمنا ماكس فيبر أن الهيمنة هي إحدى السمات المميزة لكل مجتمع صناعي، وأن هذا الأخير يشكّل مصير العالم الحديث، شئنا ذلك أم أبينا. الواقع، أن العقلانية التكنولوجية ظاهرة غربية لا يمكنها أن تولد في الشرق الصيني، الهندي أو الإسلامي؛ وإن ظهور هذه العقلانية يتميز بثلاثة عناصر: ١ - الغزو المتدرّج لكل ميادين المعرفة من جانب الرياضيات، أي من قبل أسس العلم الحديث؛ ٢ - تطبيق نتائج العلوم من جانب تكنولوجيا مناسبة؛ ٣ - وأخيراً، ظهور بيروقراطية لا شخصية يكمن دورها في تمثيل وظيفة غير مرتبطة بأي انشغال شخصي^(١٤).

حين تعمق عالم الاجتماع الأميركي دانيال بل (Daniel Bell) في التناقضات البنوية الملازمة للمجتمع الصناعي، توصّل إلى التفريق بين ثلاثة فضاءات متمايزة، يخضع كل منها لأساس محوري مختلف: فضاء تقني / اقتصادي، فضاء حكومي، وفضاء ثقافي. «إنها غير متطابقة مع بعضها البعض، وهي ذات وتائر وإيقاعات تبدلية متباينة، إنها خاضعة لمعايير مختلفة تسوّغ مسالك مختلفة وحتى متعاكسة. إن الاختلافات بين هذه الفضاءات هي المسؤولة عن شتى تناقضات المجتمع»^(١٥).

إن العقلانية الوظيفية هي ركن الفضاء التقني / الاقتصادي، وهذه العقلانية مكونة، في نظر ماكس فيبر، من البيروقراطية والهيكلية «التي تشدّدان على التخصص وفصل الوظائف وضرورة تنسيق النشاط»^(١٦). الجدوى والانتاجية هما معيارا الفعالية. وفي هذا الفضاء يحصر البشر في الأدوار والوظائف، وتجرد شخصيتهم بحيث لا تعود السلطة إلى الفرد بل إلى الموقع الذي يشغله في

الانجاز العقلي للمهام. وبالتالي، تكتسب الإدارة في هذا المجال طابعاً تكنوقراطياً بارزاً. إلى هذا الفضاء التقني / الاقتصادي، القريب جداً من الفضاء الذي وصفه لنا ماكس فيبر، يضيف بل الفضاء الحكومي الذي تحكمه فكرة المساواة في مجتمع ديمقراطي: مساواة أمام القانون، مساواة في الحقوق المدنية، مساواة في الفرص، أو إذا شئتم تكافؤ الظروف التي تحدث عنها توكفيل في كتابه الشهير حول أميركا. وإذا كانت بنية الفضاء التقني / الاقتصادي مكونة من البيروقراطية والهيكلية التراتبية، فإن بنية الفضاء الحكومي محورها التمثيل والمشاركة. أما الفضاء الثقافي، فيقصد به بل فضاء يتضمن، كما يرى أرنست كاسيرر، كل مجال الأشكال الرمزية: «الرسم، الشعر، الرواية، المناشط الدينية، الشعائر، الطقوس والعبادات، التي تعبر عن الفكر البشري تعبيراً تخيلياً»^(٧٧).

هكذا يكون لمختلف الفضاءات إيقاعات تبدلية متباينة، فإذا كان التبدل خطياً في المستوى التقني / الاقتصادي - إذ إن مبدأ الفعالية يحرك الإبداع دائماً -، فإن هناك نكوصاً، في مجال الثقافة، رجوعاً إلى مسائل الإنسان الأساسية، الجوهرية والفلسفية، من هنا فكرة الفصل بين الفضاءات. بين بنية اجتماعية تقنية / اقتصادية أساساً بيروقراطية وتراتبية، أي لا شخصية، وبنية اجتماعية حكومية تشدد على المساواة والمشاركة، وبنية اجتماعية ثقافية، حين تنكر التخصص وتندد به، إنما تشدد على تفتح الأنا، هناك تناقضات ذاتية / داخلية، «إننا نلمح من خلال هذه التناقضات عدداً من الصراعات الاجتماعية الكامنة، التي جرى التعبير عنها فكروياً: الارتهان، اللاشخصية، رفض السلطة، الخ. تبين هذه العلاقات التغالبية انفصال الفضاءات»^(٧٨).

وبالتالي، لئن كانت هذه التوترات منظورة في صميم المجتمع الغربي الذي شهد ولادتها على مر الأجيال، فإنها حين تنقل إلى مدارات ثقافية غريبة عن هذا المسار، لا يمكن لهذه الصراعات إلا أن تتفاقم وتغدو انفجارية بكل صراحة. ومنذئذ، يزداد تفاقم الفصل الشديد بين طبقة بيروقراطيين مقطوعة من العقلانية الوظيفية الحديثة وبين جماهير محرومة تقبع في مجالات التاريخ

الغامضة، بقدر ما يعكس، في المستوى القومي، التفاوت نفسه الذي يلحظ على الصعيد الدولي بين البلدان النامية والبلدان المصنّعة، وعلى صعيد المعرفة بين الجذر القديم والجديد. وإذا كانت السلطة «للمستوطنين المحليين». فذلك أيضاً لأن لهم التربية الحديثة والمعارف التقنية. وإن الصراعات الناجمة عن هذه التفاوتات شبه محتومة على مستوى الثقافة، ولا يمكن حلها بأحكام من الطراز الأخلاقي، ولا بالإدانة المجردة لطبقة أو لعالم لمصلحة عالم آخر.

٣ - تقديس الجهل

عندما تخفى هذه الانكسارات والانقطاعات تحت ستار الخطابات المعادية للاستعمار، أو تحت ستار الأمنيات الماهوية الأكثر إغواءً، ألا يُقنّع جزء من الواقع؟ ألم تنجم هذه الانقطاعات عن «تفاوتات لا تقبل الحصر»، صادرة هي ذاتها عن التآرجحات حول الجذور وعن التحول الشديد للمشاهد الاجتماعي؟ ونظراً لكون كل معرفة تقنية آتية من سياق أجنبي، وبالتالي غير متوافقة مع ثقافة البلد، يمكن اعتبارها بمثابة اعتداء. وبذلك يمكن تشبيهها بعمل استعماري؛ فإن الأمر الجوهري هو أن نعرف إذا كان في الامكان الاستغناء عن هذه المساهمة الخارجية، من خلال الانطواء على الذات. لا تبدو الحالة كذلك، وبالتالي لماذا التسليم، فجأة، بأن البيروقراطي هو بالضرورة مستوطن محلي؟ هل يمكن الانفلات من الفضاء التقني / الاقتصادي؟ وهل يمكن ادارة الظاهر لكل فكرة إرادة انمائية، والهرب من النتائج المضرّة للحدثة كما نهرب من الطاعون؟ لماذا تصفّح الرؤية المانية / المثنوية للأبرار والأشرار، وتلصق فوق الوقائع المحايدة والحرّة من كل لون قيمي؟ لأننا بهذه الطريقة ماذا نفعل؟ إننا نهذب مسألة غير أخلاقية. لكننا حين نهذبها أخلاقياً، إنما نعكس القيم بحيث إن ذلك الذي يعلم، التقني مثلاً، يغدو مستوطناً «محلياً» بحجة أنه محسوب أيضاً على الامبريالية، ويغدو طيباً ذلك الذي يبقى خارج الكوب، أي الكائن المهمش - معذب الأرض، يؤبلس التكنوقراطي (أي الوظيفة) ويقدّس الجاهل. إن هذا الموقف الذي يقوم على قلب القيم، وعلى إلحاق المعرفة والجرمية بها، بغية ابتلاع حدة الوقائع المريرة، إنما يعتبر إحدى العمليات الأكثر إفساداً والأكثر

انشحاناً بالعواقب، لأن العمل المعاكس يستلزم، في المقابل، موضوعية، تدريباً رواقياً على الوقائع، تعلماً صبوراً وحتى ترفعاً معيناً إزاء الطيبين والخبيثين. لكن كيف يمكن التوصل إلى ذلك، وأسفاه! طالما أن المتهمين قد جرى الحكم عليهم في محكمة التاريخ.

لنضرب مثلاً. إن هذه الرغبة في صب السموم على كبش محرقة قوية جداً، لدرجة أن روائياً إيرانياً شهيراً، مقيماً في باريس، لم يعد يعرف لأي ولي يتوجه، فراح هذه المرة يهاجم الشتات ذاته، وهو يهتم بتصفيح رؤيته عن الأبرار والأشرار، مهما كلف الأمر، ولذلك وجه سهامه إلى المنفيين أنفسهم وتوصل إلى هذا الاستنتاج الأريب، وهو أن المنفيين يمثلون غمطين من البشر: اللاجئيين (âvâreh) والمهاجرين (mohâjer). اللاجئون هم سكان البرزخ (المطهر)؛ ويقصد الكاتب بهذا المصطلح ذي الأصل الصوفي الحكمي، اللامكان، الطوبى كما هي مفسرة في المخيال الشعبي، وعندما يقال إن شخصاً ما هو في موقع برزخي، إنما يقصد أنه محاصر: لا يستطيع التقدم أو التأخر.

اللاجئون هم أصناف من المتسكعين المتشردين الذين يعانون آلام المنفى ذاتها التي يعاني منها المهاجرون، لكنهم لا يستطيعون أن يختاروا أبداً. المهاجر يستطيع الاختيار: الذهاب إلى الشمال، إلى الجنوب، السير يميناً أو يساراً. إنه يستطيع البحث عن ملجأ في هذا الوكر، في هذا المختل وهذا المعيار. فالمهاجر لا يفتقر أبداً إلى الأمل، فالعالم بأسره ميدانه، «إنه ينعم بتنشّق هواء الطوبى اللطيف». يقضي هنيهات سعيدة، يدبر أموره، ويعتني كثيراً بشخصه الصغير. إنه متفائل بلا تردد، حتى وإن ابيضّت لحيته وشعره منذ أمد طويل. المهاجر يمزح، يضحك بالفم المלא. إنه يثق بذوقه، يعرف فن مداعبة الألوان، ويتجرّع الفيتامينات للحفاظ على توازن حركته العامة (الأبيض). يتردد بطيبة خاطر على المتاحف، على السينما، يقوم بنزهات طويلة في الحديقة، يلبس ملابس أنيقة ويعقد ربطة عنق. يحب المهاجر اللحم الطيب، الأعياد الباذخة، يتعلق بالمظاهر ويتغذى بالأوهام.

يعلم المهاجر أنهم قطعوا نخاعه الشوكي، يلوذ هناك حيث يكون استقباله

حسناً. لا خيار له. مستنفذ حتى آخر رمق، مرهق، مطرود بين المطرودين، لا يتوانى عن الاندهاش من استمرار تعلقه اليائس بكلبة حياته، يحب وطنه، لكنه يدري أن نصيبه ليس «هدأة نسيم العشاق بل زوبعة العواصف». إنه بلا أمل، يعلم أنه سيندثر تقريباً، وأن الغنغرينا تآكل جسمه، إنه الشاهد القاسي على موته الشخصي.

المهاجر واللاجئ كلاهما من سكان البرزخ، ولكن بينما يبني الأول قصور أحلام، يشهد الثاني على انحلاله وتفككه بنفسه. إن ما يحرك فكره ويجعله حاداً هو وعي هويته. اللاجئ يتبدل، يتحول بلا توقف، بوتيرة متصاعدة وخيفة. ليس هذا التغير تفتحاً بل هو فناء تدريجي يوصل حكماً إلى الموت.

اللاجئ يخاف من كل شيء: من مديرية الشرطة، من مكتب اللاجئين، من ملجأ المتشردين، إنه يخاف من ظله الشخصي، يخشى أن يخسر كل شيء، بما في ذلك كبرياه ووجهه الذاتي. اللاشيء يظلمه: ابتسامة صعلوك ثمل، نظرة تآمرية لتاجر الفصول الأربعة. بعد موته يخشى أن تكون جثته في عهدة الآخرين.

هكذا، نحن أمام نموذجين من الأشخاص، أمام نمطين من المثقفين: نمط أصيل وغط غير أصيل. أمام موقفين وجوديين، حيث يغدو البشوش، المثقف، «المتمدن» بكيفية ما، هو غير الأصيل. بينما المتشرد، غير الامتثالي، المعذب، المتألم، «الموقوف حياً»، المؤهل للانتحار والتصعلك، هو الأصيل. والخلاصة؟ يا لاجئي العالم، اتحدوا! فكلما غرقتم في بؤسكم، ستظلون في منأى عن التأثيرات وستكونون أصيلين، الآخرون هم المهاجرون: أي الطلع الزائف المأخوذ بمظاهر خادعة وزائفة^(٩).

هنا أيضاً، على الرغم من نبرة الكاتب المثيرة، نجد أنفسنا مجدداً أمام الاستقطاب الثنائي نفسه، المستعاد هذه المرة بشأن المستوطنين المحليين الذين صاروا، في أثناء ذلك - بفضل الثورة - مهاجرين محليين (بالنسبة إلى البلد المضيف) ومعذبين الأرض الذين تحولوا، هم أيضاً، إلى صعاليك خارجيين، -

أصناف من المتشردين الأنيقين، الذين يجرجرون نعالهم البالية في عواصم الرأسمالية الفاسدة. إن التشرد، البؤس كبؤس، وجهل المحرومين، العراة، صارت قيماً بحد ذاتها، لا، لأن هؤلاء محرومون ومظلومون، بل لأنهم ضحايا ويرغبون في أن يظلوا كذلك. من المحذور تحسين شرطهم البشري! وبوجه خاص ممنوع أن يعرفوا! طوبى لذلك الذي لا يعلم، لأن له ملكوت الكذب.

عندما نقول إن مثقفينا ذوو نظرة مبتورة/ ملتوية، إنما نقصد كل هذه الأولات الحصارية والتصفيحية، التي تفسد تمثل الأشياء وتزيّفه. وعندما أضيف أن الحس الانتقادي ينقصهم غالباً، فإن هذه تورية لا غير، لأن هذا الحس لم يرَ النور أبداً. إننا نخاف من سبر باطن جاذبياتنا الماضية، لأننا نخشى أن تبتلعنا، وأن نفقد فيها كل هوية، معلقين في ماضٍ سحيق يترصدنا في متاهة نفسنا ويؤثر في الأفكار التي تنبثق كأشباح لا نعرف مصدرها، ها نحن اليوم مدعوون لمهمة بروميثيوس في إعادة صنع العالم. فماذا بقي، إن لم تكن التصفيحات والسرقات الفكرية؟ إن هذه الغواية مرئية في كل انتاجاتنا: في الأدب، في الفن وفي جمهورية الأفكار. لا أحد ينفلت من عقابها، ويغرق فيها العلماء، المفترض أنهم يمثلون مملكة الإلهي.

٤ - التأسلم

إن التأسلم (الأسلمة) كما يمارس في أيامنا، هو ظاهرة جديدة تماماً في نوعها. فإلى حد ما يعتبر التأسلم الحد التحقيقي الأقصى الذي يمكن لفلسفة هوية ثقافية أن تبلغه، فتؤدي حين تخرج عن أسسها، إلى التوكيد الذاتي المنفلت مثلما تؤدي إلى نفي الآخر. كما أن التأسلم هو تحيّن كل الاختلالات التي ترقد، فرضياً، في المخيال الاجتماعي، ساعود إلى هذه النقطة. إن التأسلم يراد له أن يكون رجوعاً إلى أصل سنّة الأجداد، أي سنة السلف الصالح: أولئك الذين عاشوا الزمان السابق، ما قبل كل تاريخ، التاريخ الذي هو خيانة وانحراف بالضرورة. وبالتالي يسعى إلى معاكسة كلية للحدث وللافكار التخريبية التي ترافقها. فمنذ أن استولى الملالي في إيران على السلطة، جرى تطبيق التأسلم

على نطاق واسع، لا مثيل له أبداً في تاريخ الأزمنة الحديثة. وهو بكيفية ما، تصنيف أيضاً، لكنه تصنيف لكل الاتجاهات، يعمل في الاتجاه المعاكس للتفرنج الصريح. إن التأسلم يريد أن يصفح مضمون معرفة قبحديثة فوق خلفية عالم تال لها، في وضعه الراهن - عالم تشرط فيه الحداثة، المندجة بلا وعي في شبكة النظر، كل إدراك للواقع، وهكذا يعمل هذا التغربن اللاواعي، بمداجاة، وتظل هي الخطاب الاسلامي مع تمريره عبر مصفاة «القبليات التاريخية»، وبما أن ماركسية سوقية معينة هي الأكثر فعلاً بين هذه القبليات، فإن الخطاب الإسلامي يصاب، على منواله، بعدوى المقولات الماركسية.

هناك ماركسية مقنعة تلوح في الجو، تتغلغل في ثنايا وثغرات الخطب الدينية، تمنحه نفحة أوكسيجين، «تحدثنه»، تجعله في نهاية الأمر قابلاً للبيع سياسياً، حين تنتصر الثورة يُرمى الماضي في «مزبلة التاريخ»، وحين «تؤسلم» الامبريالية، تتحول إلى «استكبار عالمي»، وحين تخسر البروليتارية موقعها الطبقي تستحيل طبقة محرومة مدقعة، وأخيراً حين تتعلمن المسيحانية تتحول إلى حتمية تاريخية، لكنها حتمية توحد المفوض ونبؤة الساحر بشكل طريف.

وقع العلماء في شرك خطاب اجتماعي / سياسي جديد - ما هو إلا مزايادة وهرب إلى الأمام، لمن يمهه الأمر. وبالتنافس! يتعين على الخطاب الجديد التمكن من المحاربة على عدة مستويات: ثقافياً، اقتصادياً، واجتماعياً. في المستوى الثقافي، لا بد من التأسلم مهما كلف الأمر، وهكذا يجري التصنيف خطأ ومن خلال الإسلام - أو من خلال أشكال اسلامية مزعومة - فوق بنى موجودة من قبل، تعود إلى مرحلة تاريخية «متقدمة» عليه. من هنا سطحية التأسلم الصارخة، التأسلم الذي ينحصر في المظاهر الأكثر خواء، خالفاً بذلك عالماً «سورياً» قريباً من الهذيان. لم يعد عالم أصحاب الدين مع نظامه المغلق، وقيمه القروسطية، موجوداً في أيامنا إلا في الكتب، في الخلايا العقلية، في حرم المدن المقدسة. لقد تغيرت في العمق البيئة الميتافيزيقية للبلد: ولم يعد قائماً التناظر بين الداخل والخارج. ففي الوقت الحاضر، يموج عالم المال باللازمي كرمث حزين وسط اجتياح لا يوفّر أي قطاع من الحياة، ولو كان من أكثر

القطاعات تقليدية. كل شيء، في عالم الملاي مُصاب: التقاليد، العادات، طرق الانتاج، العلاقات الاجتماعية وتمثّلات العالم. جنباً إلى جنب ترقّد عوالم متباعدة تاريخياً: التكنولوجيا الدقيقة وأقدم المسالك، كاتدرائيات الفكر وسط ورش ترميم الأنقاض والأراضي الغامضة والأسواق الكبرى وناطحات السحاب التي ترتفع كفطريات عملاقة. زد على ذلك، أن هذا العالم الملون تقنياً يصيب المعارف بالعدوى، وأن العلماء يتفرنجون على الرغم منهم. وتولد مفاهيم غريبة/ عجيبة في خطاباتهم التي لا معنى لها إلا في سياق الحداثة، ونكتشف لدى أكثرهم جهاداً، آثار نوابت مفهومية متأخرة من فلسفات اجتماعية لم تكن في الإطار المرجعي لعالمها الخاص بها، سوى معان مضادة، وحتى أنها لم تكن سوى تحريفات مخزية. إن كل هذه الأفكار المشوهة والمحرّفة تحون جواً اغترابياً، حيث المفاهيم الاسلامية لا تزال متناقضة مع ذاتها. فهي تظهر في هذا الجو كأنها يتيمات مفطومات عن ثدي التراث. صحيح أن الشحنة الانفعالية للخطاب تحفي بكل مهارة الأفكار المموهة، ولكن هذه لا تنجو من صرامة التحليل.

تفرض على النساء، مثلاً، تقاليد بالية تجاوزتها عقلياً الكثيرات منهن (على الأقل اللواتي وعين حقوقهن، وهن كثيرات)، نظراً لأن نحيالهن تغذى من النماذج التي تصدر عن الحركات النسائية في العقود الأخيرة، أكثر مما تغذى من المثل الدينية المستوحاة من فاطمة الزهراء، ابنة النبي. من هنا الموقف شبه الحائق الذي نلاحظه لدى النساء المتطورات، وهو موقف بطولي يدهش بشجاعته وعناده الكبير. مع انصياعهن لأوامر السلطة مؤقتاً، إنما يخادعن حين يلجأن إلى التصنع، ويسترجعن العادات القديمة عند أول علامة استرخاء، فيعشن على هذا النحو في عالم من المكر والكذب، حتى المرأة الشعبية - لا أتكلم على المرأة المتعصبة - المعتادة على لبس الحجاب، تشعر أن الأمر يتعلق بعملية غير دينية، بالمعنى الحقيقي للكلمة، بل بتنديد واستنكار لأواله قهر، لسلطة إكراه، إرضاء لحزبية النفوس الثائرة. أو، لماذا لا؟ طريقة ملتوية للتنفيس وإلقاء الوزر على النساء عندما تسير الأمور سيراً سيئاً في الجبهة، أو عندما يمنون بهزيمة نكراء معينة في ساحة القتال.

يضاف إلى ذلك مقت كبير لكل ما هو جميل، أكان ذلك إخفاء لكل جاذبية حسية من شأنها إثارة الخيال، أو الإلحاف المريض على ألوان رمادية ودائكة تفضي إلى دفن مفاتن الحياة المبرقشة تحت حجاب مآتي حزين. لأن كل حماس متّصل بالذوق الجمالي يشكل في نظر السلطة القائمة آثاراً مشبوهة جنسياً. الموسيقى، الأناقة، الجمال، كلها أمور مشتبه بها ومظنون بأنها تفرز عدم اللياقة والحشمة، وحتى البهارج الخادعة لانحراف مقنّع.

هل يتعلق الأمر بميزة خاصة بالإسلام؟ لا أظن ذلك، على الرغم من كون الإسلام قد أدان دائماً الترف، وأدان بعض الفقهاء الموسيقى والرسم. إن مفكراً سنياً مثل أبي حامد الغزالي (١٠٥٨ - ١١١١)، الإيراني الأصل، والمفترض أن يكون قاسياً تجاه الفلاسفة^(٧٢)، لم يرفض الغناء والموسيقى، حتى أنه يبدو مؤيداً لممارسات كهذه في كتابه، كتاب السماع والامتناع. ففي نظره، أن الامتناع الناجم عن السماع مماثل للوجد والغيبوبة التي يشعر بها الأنبياء في أثناء الوحي^(٧٣). وهو لا يكتفي بعدم إدانة الموسيقى (السماع)، بل إنه يؤكد فوق ذلك أن القرآن أكثر إمتاعاً من الشعر. في مقابل ذلك، موقف فقيه سلفي متشدّد، مثل ابن تيمية (١٢٦٣ - ١٣٢٨)، أقرب إلى قادة الجمهورية الإسلامية، لأن سماع الصوفيين في نظر هذا الفقيه المتزمت هو بدعة تستثير الشرك والكفر، وتؤدي إلى السكر^(٧٤).

باختصار، نفضي إلى كل الأمور التي لا يستطيع الإسلام أن يدينها بشكل قاطع، لا رجوع عنه. لكن هذا لا يمنع أن الموقف الحالي للجمهورية الإسلامية في هذا الشأن، يكشف أمراً إضافياً. ازدراء كل ما هو جميل، والرفض الوسواسي لكي ما يثير الحواس ولو قليلاً، هما في نظري كاشفان لموقف مبتكر يوحى بالبشاعة السلبية في الأنظمة الكلية، أكثر مما يوحى بالترزمت المتصلّب قليلاً في المجتمعات الإسلامية التقليدية. ففي هذا الرفض العصابي إرادة قوة لا مثيل لها، رغبة شديدة في القضاء على كل محاولة لكسر الصّدفة - المفترض أنها إسلامية - التي جرى حبس عجينة الحياة في داخلها. إن هذا الجانب

«الحديث»، الكلي تحديداً، هو الذي يجعل البشاعة كبشاعة، مقولة قائمة بذاتها، بحيث إن هذه المقولة تكتسب قيمة شبه وجودية.

زد على ذلك أن كونليوس كاستورياديس لم ينخدع في الأمر: حين حلل البشاعة في الأنظمة الاشتراكية، قال: «سبق أن عرفت مجتمعات بشرية ذات ظلم وقساوة غير محدودين تقريباً، ولم تُعرف قط مجتمعات لم تنتج أشياء جميلة. ولم يعرف منها أي مجتمع لم ينتج إلا البشاعة الإيجابية، وها نحن نعرف، الآن، مثل هذا المجتمع بفضل روسيا البيروقراطية»^(٧٣). وهذه البشاعة بالذات يجب البحث عنها في الطبيعة الشاملة للنظام، وإن التفسيرات من طراز: غياب الحرية، القمع، القيادة الاستبدادية، هي أقوال غير كافية. ففي كل مكان في التاريخ، اشتغل الفنان «على الطلبية» وبأسلوب مفروض، لكنه كان هو ذاته يؤمن بذلك. «إن عدمية «الفن» الرسمي الروسي وغباوته واطفائته تدلُّ بكل بساطة وبما لا يقبل الدحض على تناقضات هذين القولين: «لا يؤمن الفنان نفسه في ذلك، ولا يمكن تصديقه في فنه»^(٧٤).

ما يقوله كاستورياديس عن النظام السوفياتي يصح أيضاً، بطريقة أخرى، وبنسب متفاوتة، على النظام الحالي في إيران، فهذا النظام، صنونظيره السوفياتي، ولكن فوق سجل ثقافي آخر، سطَّح تلافيف الحياة ومدَّدها تحت حجاب اللاشخصية الرمادي، خافضاً بذلك الوجود إما إلى شهقات الموت الجافة، وإما إلى رتابة الضجر الخائفة. توحى هذه الظاهرة تقريباً بما يسميه ميلان كوندرا «سقط المتاع الكلي» أي واقع ربط كل شيء بالمثال القطعي للوجود. هذا المثال يمكنه أن يكون سياسياً هو الفكرية المهيمنة (الإسلام) أو ديكتاتورية حزب أوحده. ومنذئذٍ يحذف من الحياة كل ما يمكنه أن يلحق الأذى بهذا السقط القوي الحضور: الفردانية والجمال على حد سواء، السخرية والريية والحس النقدي معاً^(٧٥). ذلك لأن كل شيء موضوع هنا تحت الحراسة: الحياة نفسها معلّقة. إن كل عمل جمالي، سياسي، إنساني، كل تمرّد في أي شكل كان، من شأنه إظهار الوجه الآخر لهذه البشاعة الكثيفة، يجري التعامل معه كخطر مميت، كتمزق، كتساؤل جذري عن النظام نفسه. وهذا النظام جعل

من بطلانه بالذات مبرراً لوجوده، وخلط بين القدسي والبشاعة خلطاً بارعاً، لدرجة أن هذا الالتباس صار، في ذاته، تضليلاً كبيراً سيء الذوق.

أ) تذكير النموذج الأنثوي

بما أن الجنس قد أزيل من الحياة الاجتماعية، فإنه يظهر مجدداً، ولكن مع هجاس قوي الحضور، خائق، مرضي، لا يزال يراود العقول والنفوس بشكل أعنف من غوايات الجسد الشهوانية. إن عنف الكبت بالذات هو الذي كان يستنكره بالأمس فيلهلم رايش عندما كان يقول، استناداً إلى بسيكولوجيا جماهير الفاشية: «لأن الحياة الجنسية التي كان المسار الكبتي يرفض إشباعاتها التي شاءتها لها الطبيعة، فإنها ترتد نحو كل أصناف الإشباع البديلة»^(٧٦). هذه الأشكال البديلة يمكنها أن تكون العسكرية، العدوانية، وعبادة الموت. في إيران الحالية، تطفو مجدداً هذه الأواله الشبقية في أشكال أخرى، ففيها تجتمع معظم الإشباع البديلة: فالحرب تمجد فيها بوصفها عملاً أخروياً من أعمال الخلاص، نظراً لأنها تطلق طاقة تدميرية هائلة؛ ويغدو الموت فيها ذروة الحياة، والمرأة إذ تكتسب فيها المكانة المميزة لأم الشهيد، فإنها تدل على غوايات الجسد المقلقة بقدر ما يتعين قمع الجسد هذا بأي ثمن. إن الحماس الشديد للنظام ضد القوة الشبقية لدى المرأة، ليس إلا مثلاً حزيناً على ذلك.

منذ البداية، جرت تعبئة النظام ضد النساء، صارفاً قسماً كبيراً من طاقته لقهر هذا العنصر المقلق الذي كان يبدو كأنه تهديد ثابت ضد أمنه. وكان هذا المنشط يتجلى في كل المجالات المتعلقة بالمرأة: في إزالة مواخير طهران وفي استرداد النظام الإسلامي الجديد للباغايا؛ وفي توسيع الزواج المبكر الذي كان، في موازاة الزواج السوي، يضيف الشرعية على الزيجات والاقترانات الظرفية، المكفولة من قبل الدين ذاته؛ في الفرض الإلزامي للحجاب، الذي أثار، منذ البداية، استنكاراً عاماً؛ في خطابات بعض الملالي على الشاشة الصغيرة، المشبعة بهوامات جنسية؛ أخيراً في إنشاء كتائب الآداب المتحركة (نار الله)، لقمع كل انحراف جنسي عن تقليدية النظام العقيدية الصارمة.

بالتالي، إذا كان عدد كبير من النساء رفضن وصاية السلطة ووجدن طرقاً ملتوية - جريئة جداً في بعض الأحيان - للإعلان عن تمردهن، فإن قسماً كبيراً، في المقابل، من النساء المعصبات أظهرن «تأييداً مازوخياً» للسلطة. مدهشة هي التشابهات التي جرى رصدها بين هذه المسالك النسائية وتلك المسالك في النظامين الفاشيين الإيطالي والألماني. حين درس م. أ. ماكويوكشي العلاقات الغامضة بين النساء والفاشية، نبّه إلى أن «الفاشية سعت منذ البداية وراء تأييد النساء الذي أصفه بالمازوخي: قبول وانقياد، من خلال نزوة الموت (فرويد)، لكل التصريفات الممكنة باسم الطقس الثابت لعبادة الموت والأرامل محتفين بزهدهم/ التكفيري الخاص بهم، وسط رؤوس ميتة، كان الفاشيون قد اتخذوها ييارق وشارات، وكانوا يرسمونها في كل مكان تقريباً، رافعينها حتى على قبعاتهم وقمصانهم السود. يولد من هذا التخلي عن الحياة الفرح السالب للذات كذات. إنه فرح علاقة المرأة بالسلطة: هجر، الحاق، رقيق منزلي مقابل حب القائد/ الزعيم/ الدوتشي^(٧٧)، المجرد، الكلامي، الدهماوي (الديماغوجي)».

إن كل هذه الإشباعات البديلة، كالانتهاء المازوخي، نزوة الموت، الزهد/ التوبة، الالتحاق بالسلطة، نجدها في أيامنا أيضاً في إيران الراهنة، من خلال سلوك النساء المعصبات الهستيرري غالباً. إن هذا الموقف النضالي جديد ومائل في كل معالم ظاهرة مبتكرة؛ نشهد هذا التحول النموذجي لصورة المرأة التقليدية. صحيح أن المرأة الإيرانية كانت قد تحررت في ظل النظام القديم، وأن التغيرات الطارئة في أثناء تحديث البلد بفضاطة كانت قد جعلت من المرأة كائناً جماهيرياً، مستعداً لأن يُستوعب سياسياً؛ لكن هذه الخطوة لم تقع أبداً. وهذا بالتحديد ما قام به النظام الجديد بنشاط، ولكنه في خلال ذلك غير في العمق صورة المرأة وجعلها تعاني تصلباً بالنسبة إلى الأنوثة المثالية، التي كانت تجسدها المرأة في الاسلام الشيعي. سأشرح ما أعني.

إن المثال النموذجي للمرأة - صوفياً يرمز إليه في الإسلام الإيراني بإبنة النبي خصوصاً: فاطمة الزهراء، إنها زوجة الإمام الأول، علي بن أبي طالب، ابن

عم النبي وصهره، وإن نسل فاطمة هو الذي سيحفظ دور الولاية (Initiation)، الذي بدأ عندما ختمت النبوة. منذ ذلك الحين سُميت «مجمع النورين». فهي تشكّل مع النبي، والدها، ومع زوجها والأحد عشر إماماً من نسلها، مجمع الأطهار الأربعة عشر. إنها مصدر نوراني للحقيقة الداخلية، ترمز إلى الذات بوصفها صوفياً، وتنقل صورة الفردة الروحية. وهي تظهر في مواجد الفيلسوف الإيراني مير داماد من القرن السابع عشر، كأنها في صميم نوع من المندلا (Mandala) وحولها الأئمة^(٧٨). في هذه التصاوير القدسية الذهنية تتجلى فاطمة، المحاطة بهالة المجد، في صميم الصورة بالذات، مشرفة على حقل الوعي. كل هذا يكرّر بطريقة ما رمزية المركز، لأن بلوغ المركز يعني إمكان التوصل إلى الكل، إلى الفردة.

لكن مع إضفاء الفكرورية على الدين واسترداد المرأة سياسياً، ستتكشف صورة المرأة/ صوفياً هذه لصالح صورة أخرى ربما تكون غير معروفة، لكنها نضالية أكثر وتستجيب، بلا شك، استجابة أفضل للتركيبة الثورية لدى النساء المعصّبات: أي صورة زينب، أخت الإمام الحسين، سيّد الشهداء وأميرهم. وكما أن الفيلسوف الصوفي السائر بالأمس على خط الولاية، يغدو اليوم فقيه الإسلام الثوري ومنظره؛ فإن الرمز النسائي للذات يتذكر أيضاً، يترجل، ليتحوّل، مع الوقت، إلى عدوانية فدائيي زينب، هذه الميليشيات النسائية التي يطالب حماسها المحموم بالثأر دائماً وأبداً، لأن زينب التاريخية نجت من مجزرة كربلاء التي وقعت في العاشر من شهر محرم سنة ٦٨٠م - وهي مذبحة رهيبة قتل فيها الإمام وأفراد عائلته وصحبه. منذ ذلك الحين لن تعرف زينب الراحة قبل أن تثار لدم أخيها. اقتيدت أسيرةً إلى بلاط الخليفة الأموي يزيد، المسؤول عن المجزرة، فواجهته بشجاعة نادرة المثال، واتهمته بكل الجرائم وطلبت الثأر أمام الله^(٧٩).

إن الأخوات/ زينب يصدمن بقساوة سلوكهن وبرودته. وإن تواطؤهن مع الموت، مع الثأر، منظور في كل مكان: في عبادة الشهداء الذين ينسكب دمهم الرمزي مثل نبع قرمزي من صرة الأرض في مقبرة بهجة الزهراء، في أغاني

الآلام الشديدة، في الشعارات الحماسية التي تربطهن بالقائد الباهر، لأنهن ألا يعوّضن بهذا الشكل عن حرمانهن من خلال الانتقال إلى النظام الذكري، الذي يقوده الذكر الأكبر، الزوج الصوفي لكل الأمهات؟ هكذا تتأرجح صورة المرأة بين طرفي نقيض: الأرملة والمناضلة. فهي تارة تمجّد بوصفها أم الشهداء، وتارة بوصفها الأم المعذبة، المرأة المحزونة؛ وبالتالي العفيفة والمحصنة في آلامها، وتارة بوصفها مناضلة تأخذ بالشار، وتارة تقدّم بوصفها أرملة ترتاح استراحة المحارب، استعداداً للاستشهاد المقبل، ومكرّسة على هذا النحو لتظلّ في حداد دائم؛ وعلى هذا الشكل ترمز المرأة بالتحديد إلى هذا الفرح النافي للذات، وبقدر ما تعتبر الحرب مقدّسة، سيدوم هذا الوضع طالما دامت الفتنة، وذلك إلى نهاية الأزمان.

ب) حادثة مخفوضة إلى السرية

كما يمتد إلى التعليم إضفاء الإسلام على النظام، ذلك لأن غسل الأدمغة - خصوصاً الأدمغة الشابة والطّيعة - طريقة تلجأ إليها جميع الأنظمة، التي تريد أن تكون كلفة (توتاليتارية)، بلا قتال. يجري تعديل مضمون التعليم، فيحقن بمقدار قويّ من العقيدة الإسلامية، يطفو على السطح مثلاً يطفو الزيت في وعاء ماء، وذلك بعدما يجري تصفيحه وإصاقه بمضمون التعليم العلماني الموجود قبله. وهذا معناه أن التعليم يظل في مجمله مثلاً لتصفّيح سطحي، شأنه في ذلك شأن الطرق الجماهيرية الأخرى للتأسلم. فمعظم الشبان - خصوصاً في الأوساط الحضرية - واعون نسبياً لعبثية الوضع، إنهم يعرفون أن هذا الوضع مفتعل، وأنه يجري في عكس مناخ العصر، وأن التعريب الالزامي يجعل نطق السور القرآنية غير سليم. من هنا الموقف المزدوج للأطفال الذين يتعلّمون اللغتين الفارسية والعربية في مدرسة الخداع والتسكّع، فعالمهم يستلهم أبطال أفلام الفيديو. في نظرهم، يشكل ميكائيل جاكسون، برنس، مادونا، حقيقة ملموسة أكثر من استشهاد الأئمة؛ وحفلات الرقص (Break Dancing) مألوفة لديهم أكثر من الطقوس المملة للصلوات التي لا تنهاى. ولئن انصاعوا لأوامر

السلطة الدينية، فإنهم يعيشون سرّياً في داخل ذواتهم: أي أنهم بعيدون عن هذه السلطة. من هنا، ظهور جيل كامل من الفصائيين أشدَّ عُصاباً من الجيل القديم.

تحت السطح الضاغط للأشكال «الإسلامية» التي تطول وتوظف، حرفياً، كل مناطق الحياة المبرقعة، ينبض باطن حياة أخرى أكثر غنى، حياة تمرّدية، سرية، تظلُّ مدنية لنماذج الغرب الثقافي. ولئن كان الإسلام المجاهد يشكّل في ظل النظام السابق، خلفية الرفض، وحتى عرين المكبوت، مع انفجار لاوعينا الجماعي وما يتلوه من اشمئزاز، فإن الحداثة المدفونة، حالياً، تحت مظاهر الدين الفارغة هي التي تتحرّك في باطن حياة الإيرانيين السرية.

إن هذه الاستجابة من كل الجهات هي التي تفسّر جزئياً إعادة الاعتبار للنظام. وهذا ليس فقط بالنسبة إلى المتفرنجين - من كل الاتجاهات المتداخلة - الذين ربما باعوا أنفسهم للشياطين الكبيرة والصغيرة، بل أيضاً بالنسبة إلى قسم كبير من المحرومين الذين لم يستخدموا، في هذه البلبلة الكبيرة، إلا لهماً لنيران سلطة لا يشفى حقدّها. لا شك أن الشهادة مفيدة، حتى أنها نبيلة وضرورية، ولكن شرط أن يُحكى عنها مرة كل سنة في مناسبة مأساة كربلاء، وأن لا يتخذ منها ذرائع تافهة لكل التضحيات المجانية. فالإسلام الذي ينشدونه هو ذلك الذي يمكنه، مع تغذية مخيالهم ومع تلبية رغبتهم، أن يتركهم يعيشون بسلام في محيط دنيوي، يمكن للحديثين أيضاً أن تكون لهم كلمتهم فيه. لأن هؤلاء الآخرين يمثلون، رغم كل ما يقال عنهم، النظام والوظيفة والازدهار الاقتصادي.

إن كل العلامات الرامزة إلى هذه الطبقة الحديثة جرت إعادة اعتبارها، بلا مواربة، في بعض الأوساط: سواء من حيث ارتداء ربطة العنق أم من حيث اللغة الفنية، الخاصة بالكوادر، والمعارف التقنية واللغات الأجنبية والقيم الغربية. حتى أن بنى السلطة القديمة ووظائفها لا تزال تحظى بكل احترام: الدركي أو الشرطي ببزته الرسمية، ضابط الجيش، الوجيه، القاضي المدني

والمتقن التائب. باختصار، إن كل شخص أو كل مؤسسة بحكم اشتراكهما في الحداثة، يقدمان حداً أدنى من النظام والعقلانية في مواجهة المزيج السديمي لأجهزة الاسلام المشوّهة، التي تؤدي وظيفة مزدوجة مع البنى القديمة القائمة.

إن علامات الحداثة، شيمة مظاهر الملابس وعادات الطعام والتغذية، والعادات السلوكية الدارجة - Cool الوقحة، كما سيقول الحديثون اللاحقون - صارت مدارات للرفض، ينطوي المرء على نفسه - على كل امرئ أن يزرع حديقته - ويصنع فيها، على طريقته، مشروبه الكحولي الخاص به، ويقرأ جرائده، ويحضر أفلامه المفضلة على الفيديو. ما زال المرء في مجرى الأزياء وأحداث العالم، ويتحمس ليتعلم، وحتى أنه يزايد في ذلك. يجري تحديث الحجاب، يجمّل ويزيّن، يجعلونه أكثر فتنة وحتى أكثر غنجاً، وتمارس اللغات الأجنبية، وتعطى أذن صاغية تماماً لتقانة البلد قبل الإسلامية. يغدو المرء مضاداً للعرب ومضاداً للإسلام، لأن الاثنين مرتبطان في الذاكرة الجماعية، بلا انفكاك. شيئاً فشيئاً يحل زرادشت، حكيم ايران القديم، محل نبي الإسلام في النفوس الشديدة الحماس، حتى الجنون، للقومية المتطرفة. باختصار، يلتقفون كل علامة، كل مؤشر يمكنه إبعاد تدخل هذه القوى العتيقة، هذا الديناصور المنبعث من كهف الذاكرة القديمة، المحكوم عليه بالزوال في يوم من الأيام. إن ظاهرة الرفض هذه طبيعية تماماً مثل رفض جسدنا لزرع عضو غريب فيه. وفي هذا الرفض شبه الأولي الذي يُلاحظ في كل المستويات، يتجلى فشل التأسلم الثقافي للنظام الحالي. إن الإحساس المرهف وتطور العادات، والعقليات المنقطعة عن الماضي هي كلها ظواهر لا يُقبل الرجوع عنها، ولا يمكن ردها إلى نقطة البداية: النقطة صفر من التاريخ.

ستقولون لي إن كل هذه الظواهر تتعلّق بالطبقات المتطورة وليس بالجهال؛ إن هذه الواقعة غير صحيحة إلا جزئياً، وهي فوق ذلك تبن أمرأ: هو أن التأسلم، حتى وإن نجح في تحريك الغرائز، وفي إثارة الحقد والكراهية، لا يتمكن من إقناع العقل. وهذا فشل.

لئن كان فشل الثقافة ملحوظاً في مستوى البنى والوظائف والأشخاص المؤهلين، فإن النكسات الاقتصادية أشد وضوحاً أيضاً، لأنها أكثر شفافية. فعلى الصعيد الاقتصادي، هناك تردد بين خيارات مختلفة: تأميم، دولنة الطرق الانتاجية أو اصلاح القطاع الخاص، وبالتالي التخصيص. هنا أيضاً تتجابه عدة عشاثر: المتشدّدون والمعتدلون، الثوريون والمحافظون، على الرغم من كوننا لا نعلم تماماً من هو المتشدّد ومن هو المعتدل. هنا أيضاً تتجاوز الاسلام الرهانات التي يدور حولها السجال، لأنه إذا لم يكن الإسلام نظاماً سياسياً في الماضي فإنه لم يكن أيضاً نظاماً اقتصادياً. إن الأطراف التي تعارضه في أيامنا، تمثل شتى الاتجاهات الفكرية التي تتقاسم عالمنا: النزعة الثورية المتمركسة، والنزعة المحافظة والمتحرّرة. وإن الاتجاه نحو ليبرالية جديدة، الذي يُلاحظ في معظم البلدان، حتى في الصين، لا بد أن تكون له آثاره، عاجلاً أم آجلاً، في ايران أيضاً، اللهم إلا إذا ساروا صراحة نحو نظام سوفياتي محض ومتشدّد، وهذا أمر محتمل أيضاً. على كل حال، مهما تكن الزاوية التي نريد أن ننظر منها إلى هذا الوضع، فإن الإسلام ليس سوى ذريعة لما هو حاصل، فهو يشكل قوة مدافعة عن مختلف تصورات السلطة. فعلى الرغم من عدائه للغرب، يستقبل النظام الإسلامي بذراعين مفتوحتين كلّ منتوجات الغرب التقنية، ويستعمل الآلات المتطورة استعمالاً رديئاً تارة، وتارة يستعملها بمهارة شيطانية. فلننظر مثلاً إلى طريقة استعمال وسائل الإعلام، واستثمارها حتى الهذيان، وطريقة استخدام الأسلحة الفتاكة، وطريقة إطلاق الأمانى المدهشة على شاشة التلفزيون، الموجهة للأخصام من كل لون، أكانوا بلاشفة أم إسلاميين.

لا يكمن خطر التأسلم الكبير في مغالاته فقط وتقلّباته وشطحاته خارج الزمان والمكان، بل يكمن أيضاً في عجزه عن إقامة نظام تاريخي له بنيته، وفي نشره الفوضى، والفوضى تفيد العناصر الأكثر تخريباً التي تنتظر دورها في كواليس السلطة. كل شيء يمكنه أن يخرج من هذه العلبة السحرية (علبة پاندور): الجياد الأسطورية المزودة بقرون، والغيلان الأكثر إرهاباً في التدبير السياسي: من القذافي إلى پول پوت، مروراً بالمتنوّرين من كل نوع. لأن عبادة

الثورة صارت غاية بحد ذاتها، وهي تقيم نظامها الشيطاني الخاص بها. إن الإسلام يدخل في مغامرات غريبة عن علّة وجوده، يحرق فيها أجنحته. وحين يريد إعلاء التاريخ، يغدو في نهاية المطاف، نتاجه الفكري الفرعي.

III

عالم الآمكان

إن الاختلالات الناجمة عن مختلف أشكال التصفيح، تتراوح إلى حد كبير. فهي تستطيع أن تكون معرفية، نفسية أو جمالية. كما يمكنها أن تكون متباينة وفقاً لجرعة قوية نسبياً من المضامين التقليدية المزروعة فوق أفكار مستوردة تموج في الهواء. ويمكنها مثلاً أن تكون نتائج تماهيات تهطل كالشلال، مثل الإسلام = الديمقراطية، الوضوء = النظافة، المحروم = البروليتاري. وهذه الأفكار تحوم، عادة، فوق الشغرات التاريخية ولا تأخذ في الاعتبار نسابة الأفكار أو التحولات المعرفية التي أدت إلى تغيير المنظر الاجتماعي والثقافي.

يمكن لهذه الاختلالات أن تكون - خاصة في ما يتعلق بظاهرة التأسلم - العلمنة اللاواعية، أو حتى الواعية، للأفكار القدسية مثل هبوط مفاهيم الشهادة والجهاد أو التقيّة إلى المستوى السياسي لـ «محرّك» التاريخ، لصراع الطبقات وقانون الصمت.

لنضرب بضعة أمثلة. لنأخذ فكرة التقيّة التي تحمل شحنة ثقافية مهمة عند الشيعة؛ معناها الأعم هو التورية، الحكمة، إخفاء النوايا. ويمكن تطبيق هذا المفهوم على عدة مستويات، فهي في المستوى الشخصي ضمانة ترمي إلى وقاية الإنسان من الخطر، وفي المستوى الديني الدفاع عن العقيدة في مواجهة عدوان الدخلاء، وفي المستوى الغيبي معنى السر، حفظ الأمانة التي أودعها الله عند

الإنسان. لكن هذا المفهوم متعدد المعاني والقيم، عندما يمرّ من خلال حقل الاختلالات الفكري، يغدو فارغاً من جوهره، سطحياً، فاقداً تناغماته الوجدانية والرمزية ليصبح نوعاً من شريعة الصمت (Omerta)، أي معنى الباطن في حركة سرية، حيث يفترض بالمرء أن يظل مكبوم الفم.

أما فكرة الشهادة لدى الشيعة الاثني عشرية، فإنها تستوحي النموذج المثالي للإمام الثالث، الحسين، الذي جاهد في صحراء كربلاء، ومات شهيداً في شهر محرم سنة ٦٨٠م. هذا النموذج يوقظ شعوراً خاصاً لدى الإيرانيين، بقدر ما كان له سوابق تاريخية في إيران قبل الإسلام، لأن الفكرة ربما تعود، بحسب البعض، إلى دم سيافوش (Siyavosh)، شهيد كتاب الملوك للفردوسي. تقليدياً، كان استشهاد الحسين طقساً غير سياسي مثل عذاب المسيح، ولا تزال الدموع والحداد والعذاب، وليس الإرشاد العقائدي السياسي، هي المحركات الحقيقية للدراما. والدليل على ذلك هو أن معظم الروايات التي تروي الحادثة، مثل مفتاح البكاء، أو طوفان البكاء، تشدّد على الجانب الوجداني المثير في الدراما^(٨٠).

لقد تعرّضت فكرة الشهادة لأول تحوّل، حين مرت في حقل الاحتلال والتبذّل. فهنا الدم، أي العدوانية والثأر، هو الذي سيسود على الدموع، وتخرج صورة الحسين من هذا الحقل مغيرةً تغييراً عميقاً. تغدو رمز الرفض ويتحوّل دمه المسفوح «محركاً» للحركة التاريخية. وفي التأويلات الحديثة (الشهادة الخالدة لنجف - عبادي)^(٨١) سعي لإعادة تقويم المصادر، ولكن حين يُعاد تقويمها، إنما يجري تجريدها من الأسطورة، من الأسرار وإدراجها في التاريخ، يجري رفع الهالة التي كانت في الماضي تكلّل الشخص، وتجعل منه صورة أسطورية، فيغدو الحسين شخصاً حقيقياً بشكل ريك، بطلاً مستعداً للموت في سبيل مثاله السياسي؛ حتى أن علمه المسبق يجري إسقاطه، أي القول بأنه كان يعلم مسبقاً بنهايته المأساوية. ويتم التوصل إلى هذا الاستنتاج وحيد البعد والسياسي السطحي: كان فعل استشهاد الحسين يرمي إلى الإطاحة بالأمويين فقط. وهكذا تكون تراجيديا الحسين دراما إنسانية وتاريخية في

جوهرها، لا أسطورة وقعت في لازمن. لأن شهادة الحسين، في الأصل، كانت عملية تطهيرية، قربانية. فكما صُلب المسيح لافتداء خطايانا، كذلك انقاد الحسين للموت في كربلاء لكي يطهر الأمة الاسلامية من خطاياها. هنا يحلّ الاختلال الزمن الخطي للصراعات الاجتماعية والتاريخية حول الزمن الدوري لأسطورة الخلاص. وتبلغ هذه النزعة التزمينية/ الدنيوية ذروتها مع الحميني، الذي استثمر أكثر من أي فقيه شيعي آخر، ذكرى كربلاء لأغراض سياسية. إليكم ما يقوله في كتابه^(٨٢): «لقد ثار الحسين واستشهد حتى يحول دون قيام الملكية والتعاقب الوراثي، ولقد ثار الحسين ودعا جميع المسلمين إلى الثورة، لأنه رفض القبول بتعاقب يزيد الوراثي والاعتراف بملكيتّه».

للعودة مجدداً إلى اختلالاتنا، فلنقل إن هذه الاختلالات لا تنحصر فقط في منطقة تهجين المفاهيم، كما هو شأن الحالات التي أشرنا إليها، بل تتعلق أيضاً بالأغراض والأشياء، بالأدب والفن. فمن الممكن، مثلاً، أن تكون تشويهات جمالية تعاني منها الأساليب والمواضيع في محيط لا يزال تقليدياً. ولنفتكر في التحوّلات الهائلة التي فرضها الأسلوب الموسوم بـ «التكعيبي» على فن العمارة في إيران الخمسينات. ومن الممكن أن تظهر في الرواية حيث يتشوّه نوع مبتكر، ناجم عن ابداعات الغرب الأدبية - كالرواية الجديدة مثلاً - من جرّاء احتكاكه بطرق إحساسية، لا تخلو فقط من أية قرابة سلافية مع الأفكار المستدخلة، بل تتناقض معها من خلال طردها لها طرداً عنيفاً.

لكن، مهما يكن التنوع في طبيعة الاختلالات الاجرائية، فإنها تشترك جميعها في ميزة مشتركة وهي: أنها لا تلتصق بالواقع. فعلاقتها الفضلى مع الواقع هي علاقة لاجدلية، لاتاريخية. إنها بنى منغلقة على ذاتها، تفرز مقولاتها الخاصة بها، وتعيش هواماتها الذاتية. باختصار، إنها مجال عقلي/ ذهني فريد من نوعه يضيفي المكانية على الديمومة، يفسد الإدراك ويصعّب كل علاقة جدلية مع مد الحياة المتغير. فالعالم الذي يعكسه هذا الحقل الاختلالي ليس عالماً سوربالياً، رغم أنه يبدو كذلك، ولا عالماً مصطنعاً فوقياً بل هو بالحرّي عالم «دون الواقع»، حيث يجري إخفاء الواقع وراء الأقنعة، و

بذاتها، تعيش عيشة مستقلة. هنا، كل شيء مقلوب: الحياة تغدو الموت، البشع يغدو الجميل، الغبي يغدو الطيب والجيد. خذوهم من خارج حلقتهم المقفلة، ولن يصمد أحد منهم أمام محك الواقع. في الواقع لا يمكنهم الصمود، لأنهم، بسبب من ارتجاع عام وشامل، يعيشون هذيانهم الخاص بهم - وهكذا يغدون هذياناً من الدرجة الثانية.

١ - الهالة، المرأة والخيال (الظل)

إن واقع العالم على صلة بتمثّل صورة وبطريقة إدراك الانسان للأشياء. فالإنسان الرائي الذي تشوّهت نظرتّه من جراء سحر العالم، لا يرى الأشياء بالطريقة ذاتها التي يراها بها الإنسان البصري الذي يعيش في مجرّة غوتنبرغ المنفكّة من سحرها. لأن انحطاط الصورة يعادل زوال الهالة، كما يقول لنا والتر بنجامين. وفي زوال الهالة هذا، يفقد الشيء قيمته الثقافية والطقوسية، ويغدو قيمة تبادلية وقيمة معروضة^(٨٣)، بحيث تحل امكانية تجديد الانتاج التقني للنسخ محل فريدة الأوحاد/ المنفرد. ولئن كانت نوعية النظرة مرتبطة بالصورة، فإن الصورة من جانبها مرتبطة برافعٍ ما. هذا الرافع هو المرأة: العالم. وتتراوح العلاقات بين المرأة والصورة وفقاً لمضمون النظرية الجوهري نسبياً: يمكن للنظرة أن تظل مفتوحة على المجال الخفي للمرأة، أي على غموض كل ما يبقى مستوراً (كما هو حال الرؤية الاشراقية) رغم تكشفه؛ ويمكنها أن تنحصر في التعاكس الجدلي بين الصورة والمرأة؛ كما يمكنها أن تخرج من إطارها، وأن تنفجر في فيضٍ من الصور المستقلة كما يجري الحال في التطور الأسّي لوسائل الاعلام. في الحالة الأولى ستكون أماننا انطولوجيا صور، مكلفة كلها بهاتها الكونية الاعتقادية؛ وفي الحالة الثانية ستكون أماننا العلاقة الجدلية للوعي التفكري/ الانعكاسي؛ وفي الحالة الثالثة سيكون أماننا خيال/ ظل، وحتى أننا سنكون أمام اصطناع صوري. سنقول بعبارات الواقع وحدوده إننا سنكون على التوالي ميتاواقع، أمام واقع جدلي وأمام واقع فوقي.

يدرس جان بودريار في كتابه عن أميركا، الظاهرتين الأخيرتين، الواقع

التفكري / الانعكاسي والواقع الفوقي المرموز إليه، على التوالي، بنظرات أوروبا وأميركا. وفي أثناء ذلك، يسلط بودريار النور على واقعة كبرى: الرؤى المختلفة التي يملكها الأوروبيون والأميريكيون عن الواقع والصورة والخيال. وها نحن قد وصلنا! فأين يندرج في كل هذا، عالمنا الخاص بنا - أعني العالم «الشرقي» الذي له مكانة خاصة، نظراً لأنه، حين لا يستند إلى الازدواج ولا إلى التصنع الصوري (الخيال)، إنما يظل عالماً إعلانياً حيث ترتدي الصورة / الخيلة رداءً اشراقياً وتتكشف فيه مثل هالة الأيقونة؟ لا يشير بودريار أية إشارة إلى ذلك، لأن هذه المسألة ليست مسألتة في الحقيقة. لكن هذا العالم مشوّه الصورة، هل هو موجود حقاً؟ وإن كان نعم، فأين هو موجود عملياً؟ وإلا، ماذا سيكون حالياً هذا العالم الذي ليس هو ميتاواقع، ولا واقع ولا فوق الواقع؟

لنرجع إلى بودريار. هناك فرق جوهري بين الأوروبيين والأميركيين، «هم يصنعون الواقع انطلاقاً من الأفكار، ونحن نحول الواقع إلى أفكار أو فكرية»^(٨٤). لماذا إذن؟ يضيف بودريار، لأن: «ما هو جديد في أميركا، هو صدمة المستوى الأول (البدائي والوحشي) والنمط الثالث (الخيال المطلق). لا توجد درجة ثانية، إنه وضع صعب الإدراك بالنسبة إلينا، نحن الذين ميّزنا وفضلنا على الدوام المستوى الثاني، التفكير / التردّي، الازدواج، الوعي التعس»^(٨٥).

ربما أخطأت أميركا الدرجة الثانية بطريقة ما، وربما طوّرت المستوى الثالث تطويراً مفرطاً. لكن كل أوصاف بودريار لأميركا تسير في هذا الاتجاه: «إن أميركا ترسيم عملاق بخط واحد، بمعنى أن الإعلام الكلي موجود ضمناً في كل من العناصر»^(٨٦). إن أميركا اصطناع خيالي لا يتراءى فيه العالم إلا من خلال الدعاية والإعلان^(٨٧). أميركا هي فيديو-غرافيا كبيرة. إن هذه التعريفات كلها ترمي إلى إبراز هذه الملكة الخاصة بالثقافة الأميركية؛ القادرة على توليد عالم من خيال، بحيث إن الصورة، كما في فيلم وُدي آلن (وردة

التوهمي . والحال، فإن الوهم ليس هو المخيال . إنه ما يسبق المخيال من خلال تحقيقه له^(٨٨) . هكذا تعتبر طريقة الحياة الأميركية توهمية، لأنها «تجاوز للمخيال من خلال الواقع»^(٨٩) .

من هنا الاستناد إلى انعدام الحامل أو الرفع . فحين حلت مرحلة الفيديو محل مرحلة المرأة^(٩٠)، لم تعد الصورة تستند حالياً إلا لنفسها، بحيث إن الخيال/الظل صار إعلاناً ذاتياً، والحياة صارت سينما، لأن «المجال كله وطريقة الحياة كلها صارا سينمائيين»^(٩١) . وبالمقارنة مع هذه الطريقة الخيالية المحض حيث تبدو طوبى القرن ١٨ قد تحققت، تعيش أوروبا في العصر المتحجر للوعي التعس، أو إذا شئتم، في عصر تناقضات القرن ١٩ التي لا يمكن تحقيقها . فموقفها من الواقع مزدوج: فهي إما أن تستبق الواقع من خلال تخيله، وإما أن تهرب منه وهي تضيي المثالية عليه^(٩٢)، وبما أن الوعي الأوروبي لا يستطيع تخطي مرحلة السلبية، فإن الأوروبيين لا يزالون «طوباويين واجدين يمزقهم المثال، ولكنهم في الصميم يكرهون تحقيقه، ويقولون إن كل شيء ممكن، ولكنهم لا يقولون أبداً إن كل شيء متحقق»^(٩٣) .

ألا تفصح السورالية، مثلاً، عن هذا التناقض بالذات؟ فما هي السورالية إن لم تكن المجهود الأخير الذي تبذله نفس فاوست لتتجاوز ذاتها عند نقطة توازن مثلى، «حيث الحياة والموت، كما يقول بروتون، الماضي والمستقبل، الممكن إيصاله وغير الممكن إيصاله، يبطل إدراكها بشكل تناقضي» (A. Breton, Second Manifeste) . إلا أن هذا الحلم، كما نعلم الآن، لم يتحقق أبداً . وظلت السورالية مرتجة داخل تأرجح أبدي بين نزعة للمشاركة في الطوباويات الثورية ونزعة معاكسة، قوامها الانطواء على النفس واستقصاء اللا

بأخرى إلى تحقيق جنونها الجماعي ، ولئن كانت أوروبا تحوّل الواقع إلى فكرة ، فماذا سيكون موقف الشرقي تجاه واقع يتبدل باستمرار ، وهو على كل حال ليس واقعه؟ إن موقف الانسان المنتمي إلى العالم غير الغربي ، هو موقف سلبي تجاه هذه التحولات . ليس فقط من الصعب عليه اصطناع الواقع إنطلاقاً من الفكرة ، بل هو ، فوق ذلك ، عاجز عن امتلاك تمثّل مناسب للواقع الحديث ذاته . فمشكلته ليست مشكلة الواقع الفوقي ، ولا مشكلة الوعي التعس / البائس . كما أنه لا ينعم أيضاً بوجودية الصورة ، التي كانت في الماضي تضيء نظرتة وتنورها وتجعل العالم والأشياء تترأى له شفافة ، ساطعة شيمة فصوص معلّقة فوق مرايا الظواهر . إنها صورة عالم ، كما يقول الشاعر حافظ (١٣٢٠) - (١٣٩٠) ، كان قد بقي مصغياً لسيد الأزل :

خلف المرأة ابتدعوا لي شيئاً يشبه البغاء
فرحت أردد ما أمرني سيد الأزل بترداده .

وبما أنه محروم من تجاربه الأولى ، فإنه لا ينعم بوعي الأزمنة الحديثة التفكير ، ولا يشارك أيضاً في الفيض الإعلاني الذاتي لعالم تأملي توهمي . والحال ، أين يوجد إذن طالما أنه يتعيّن عليه الوجود في مكان ما؟ إنه موزّع بين واقع ماورائي لعالم يحتفظ منه بآثاره المتحجرة ، وبين واقع جديلي لم تبدل تناقضاته أبداً من مضمون وعيه تبديلاً حقيقياً ، إنه معلق في أجزاء اللامكان البشري ، فواقعه هو واقع دوني ، سواء بالنسبة إلى هالة الخيلة التقليدية أم بالنسبة إلى انفجار وسائل الإعلام الفائق للواقع . إنه في عالم اللامكان ، يعيش محروماً من هالة الايقونات ، ولم يعد ينعم بمجد النجوم الثانوي / العابر .

٢ - المكان المشوّه للأشياء

صلة زائفة بالعالم الذي أنجبه مندجاً اندماجاً عجيباً في حادثة تشوّهه، يجري تشوّه الشيء الصناعي، بفضل هذه الحياة الكثيفة التي يمدّه بها هذا الوسط المرح لتراث مخفوض إلى واقعه الجزئي.

لنأخذ مثلاً على ذلك. إن سيارات المرسيدس المستعملة كتاكسيات في طهران، تقدّم صورة صادقة عن هذا الاختلال. وهذا المثل ليس خاصاً بطهران. فالظاهرة ذاتها موجودة تقريباً في كل مكان من العالم الثالث. فالمرسيدس، السيارة الألمانية، لها طابع الذكورة، الرجولة والأداء الوظيفي، وشكلها الكلاسيكي، إذ يتجنب الاستدارات والانحناءات في خطوط السيارات الإيطالية والفرنسية، إنما يمنح لصناعة المركبات متانة معينة أصيلة تجعلها تتخذ صورة الصناعة المميزة. وعندما تغدو سيارة أجرة في طهران، لا تفقد فقط السمات التي تميّز روحها، إذا جاز القول، بل إن الأثر التفكيكي لحقل الاختلال يجعل السيارة نفسها تعاني من انحطاط البيئة الاجتماعية. فالخطوط المميزة والدقيقة تلتوي، تختلط وتتداخل في تشويّهات وتحديات دقيقة جداً، تؤدي إلى اظهار السيارة في مظهر شيء لا شكل له. وتظهر عليها ألوان فاقعة تشوّه منظرها، وتجعل منها شيئاً كرتونياً. فهنا وهناك توضع مصابيح كهربائية صغيرة، متعددة الألوان، فوق الجوانب الداخلية للسيارة، وتعلّق بطاقات بريدية تمثل غالباً مناظر سويسرية (أو صور الإثمة) فوق لوحة القيادة، إلى جانب باقة أزهار ورقية، رديئة النوعية، تهزأ بكل حزن فوق مقود السيارة، وهذه كلها تحرّف داخل السيارة، تنكره وتخلق فيه جواً بائساً من أجواء عيد شعبي. وتكتسب السيارة حياة ثانية، مضافة إلى وظيفتها الأصلية. لكنها حياة تفضي، حين تنكر وظيفة الشيء، إلى تغيير مجال عالم لم يحتفظ من أصله إلاّ بعلامات انحطاطه الصارخة، المماثلة لتلك التواءات التي تندّد، بحزن كبير، بالعيد الذي مرّ بالأمس.

الانساني»، ويضيفون الطلاسـم إليه - مثل تلك التعاويذ الزرقاء الفيروزية التي يعلّقونها على الأشياء والحيوانات - لكي يردوا عنه العين الشريرة، أو حين يجعلونه شيئاً خرافياً بواسطة عبارات سحرية أو آيات من القرآن لتعويذه من المؤثرات الشريرة؛ إنهم يحبّونه، ينفخون فيه حياة ثانية أكثر جوهراً وأكثر «قدماً»، حياة تصعد، كما يقال، من قلب السحر أي من صميم أرواحية سابقة للتكنولوجيا (التقانة).

إن الشيء، حين يعفى من وظيفته لصالح مادة جوهريّة لينّة، تعاود دمجها في الأدوار الطبيعية للتحوّلات، إنّما يغدو هشاً من الناحية التقنية. إنه حصان بأربعة دواليب، فالسيارة مطية تشكو من نقص بنيوي، رغم تزيينها بحياة أخرى أغنى. فنقص الصيانة يجعلها شيئاً «مريضاً»: يجري إصلاحها يومياً بالوسائل المتوافرة، فيلاطفونها ويموهونها ويزينونها كعروس مفرطة الحيوية، لكنها مرهقة، مصابة في أدقّ آلائها، تصان وتصلّح كأنها شرف قديم مهلهل، وهكذا تمّنى بكل المصائب المحزنة الناجمة عن قدر قاسٍ جداً. يُقال في بلادنا عن طول عمر الآلات: «فلتمت في عز شبابها!» أي قبل الأجل، كما يقال عن شاب قضى في مقتبل عمره دون أن يبلغ سن الرشد. إن هذا الموت الطقسي يدل على عدم تناسب مع وظيفة الشيء كشيء. فحين تنكر وظيفته إنّما يحكم عليه بالموت، ولكن حينما يحكم عليه بالموت الباكر، يجري إحياءه في مستوى آخر، إذ يجعلونه شيئاً عجيباً على صورة البشر الذين يستخدمونه: شيء خاضع لتقلبات الطبيعة، لضربات قدر قاسٍ؛ كما يجعلونه شيئاً سحرياً يعكس في وقت واحد أزلية الله وهشاشة كل الوجود الدنيوي.

لو كانوا يريدون الدخول فيها»^(٩٥). كل شيء في الناقلات مشوّه: دواليبها «أوهام دواليب تكشف الغيب، حنية خد مشوّه بدمّل»^(٩٦). والكاوتشوك نوع من مادة مبيضة، يتخفّى وراءها دولاب غير منظور. ومع ذلك «كل هذا يسير منحنيّاً، دولابه في الحفرة ويتقدم على خاصرته مثل جريح حرب إصابته خطيرة، ويقف على دواليبه الميتة، مع زفير معدني»^(٩٧). لا شيء فيها يوحي بالمظهر العادي للناقلات كما نراها في المانيا، حيث جرى تصوّرها وصنعها. هذه السيارات «دولاب في الحداثة، ودولاب في مكان آخر، شبه مبقور، صدى، ضائع...»^(٩٨).

إن هذا «المكان الآخر الكاشف للغيب» يضع الشيء في نوع من اللامكان، حيث لا يجري أبداً إعلاء حالته، ولا يمضي أبداً أبعد من ذاته، بل ينسحق تحت عبء وزنه، ويظل دون ما يفترض فيه أنه يمثل، جاريّاً بلا انقطاع وراء الفكرة التي يكوّنها عن نفسها دون أن يلحقها أبداً. وإن ما يترتب في نهاية المطاف على هذه الاختلالات، ليس فقط الأعمال العجيبة التي تهين البصر، وانعدام الذوق، والانفلات، وبؤس التمثل والفقر المتنافر للأشكال المتفجرة، بل أيضاً الهوية اللاحدة للأشياء التي تظل في غوامض الواقع، نصف مرتسمة، نصف وظيفية، نصف تين، نصف عنب - الأشياء التي ما كات تظهر للوجود، حتى باتت شائخة جداً لكي تموت.

٣ - انفجار اللاوعي الجماعي

كما أن الاختلالات يمكنها أن تتفجّر، أن تقترن بخطاب هذيان، أن تشغل كل المجال العام، عندما ينهار نظام، بعد أحداث خارقة، وتطفو على السطح، فج

فهي ليست يمينية ولا يسارية، وتعلن أنها ثورة هوية، أي ثورة من الطراز الثالث. صحيح أن هذا الحل الثالث كان وهماً، نظراً لأنه لم يَقم بغير نقل الماء إلى طاحونة الفكرويات الجذرية القائمة هناك من قبل، لكنها بوصفها زلزلاً ثقافياً لا سابق له، تمكّنت من تفجير لاوعي البلد الاجتماعي، بنسب كبيرة جداً.

على حد علمي، نادرون هم الغربيون وحتى الشرقيون الذين كان لهم الفضل في توقع البروز الممكن للأشكال الكامنة من اللاوعي الجماعي في الشرق، وخصوصاً في خلال العصر الاستعماري، باستثناء غوبينو (Gobineau) الذي تناول، بحدس خاص به وحده، هذه الموضوعات بحصافة كبيرة. ففي نظره، آسيا، على الأقل تلك التي عرفها في النصف الثاني من القرن ١٩، «ركام جامد»^(٩٩)، ولكنه ليس ميتاً. يُظن أنها عاقر لأن الماء لا يجري فيها. وفي المقابل، يعتبر غوبينو أن الماء الراكد «غني جداً بالغيلان وبالكائنات العقيمة بالنسبة إلى نوعنا»^(١٠٠)، وإن ما هو خطر في نظر غوبينو إنما هي التشابكات المتواصلة للنظريات «الأكثر تناقضاً في طبيعتها». ولا ندري في الحقيقة ماذا سيعطي هذا «الحصاد الوافر للأفكار المتنافرة». إن كل المصطلحات التي يستعملها غوبينو، مثل «التضاد»، «التنافر»، «التشابكات المتواصلة»، تشدّد على عدم توافق الأفكار المتشابهة وعلى عدم قابلية ظهور الأشكال المتوالدة بوضوح، الأشكال التي تعتبر أخطارها في نظر غوبينو معنوية أكثر منها مادية. «سيحدث في هذا المستنقع الفكري حريق جديد لمبادئ وأفكار ونظريات طاعونية، والعدوى اللاهبة التي ستفوح منه، ستنتشر من خلال كيفية احتكاكية سريعة نسبياً ولكنها مضمونة بكل تأكيد»^(١٠١).

هذا معناه أن هذا الإخصاب غير الممكن توقعه، يصدر عن تلقيح فكرة في جسم، أو وسط غريب عنه، والواقع أن الأشياء لا

يقضي وقته في الشرب، وفي تأليف أشعار شيطانية، وينجو من كل المطاردات بسهولة - لكنه ينمسخ أيضاً إلى شخص جديد هو أشبه ما يكون بالطفرة. يمكن لهذا التحوّل أن يكون مضحكاً، مسلّياً، كما هو حال فولتير ونابوليون، لكنه يمكنه أن يكون ضاراً، مؤذياً، ومميتاً أيضاً، عندما يجري امتلاكه في صورة فكريّات كلية، فينشر الأذى والأضرار في العالم. كان غوينو بالضبط شاهداً على الانقلابات الأولى التي وقعت في آسيا، تحت تأثير النفوذ الغربي، مثلاً كظهور مدارس الرواد في المجتمعات الزرداشتية والهندوكية في الهند، والطابع النضالي الذي كانت ترتديه إحدى التشكيلات الشيوعية الأخيرة في إيران: البابية. ولئن كان حساساً - إذ من المعلوم أن غوينو أحب إيران من أعماقه - بهذه السمعة للعبقريّة الآسيوية القادرة على ابتكار أشكال أصيلة، فهو مع ذلك يندّد بجوانبها المفككة والخطرة. لا شك أن غوينو ما كان بمستطاعه أن يكون شاهد الانفجارات التي كان يتعيّن عليها أن تقع بعد قرن وأكثر، لكنه على الأقل كان من الحكمة بحيث توقع إمكان حدوثها.

وحقّ نعود إلى هوامات اللاوعي الجماعي، فلنقل إنها تنسم - في الحالة التي تعيننا - عدة مستويات من الترسيب. لقد عرّت الثورة الطبقات الجيولوجية لهذه الهوامات، إذا جاز القول. وفي المقام الأول، تظهر طبقات اللاوعي الاجتماعي البدائية تلك التي تنهل من المثالات القديمة الأكثر صموداً في الذاكرة الجماعية مثل الشهادة، المسيحانية (المهدية)، الزعامة النبوية الباهرة، الخ. وهي جميعها تقريباً من أصل سابق للإسلام، وتغور في ليل الأزمنة. إن هذه المثالات القديمة تلعب في مستوى اللاوعي الاجتماعي الدور نفسه الذي تلعبه الغرائز في مستوى النيسالة (Phylogenèse). تضاف إلى ذلك المعتقدات الدينية التقليدية المتداولة وأفكار الحداثة المستوردة من مبادئ الأنوار والليبرالية في القرن ١٩. كما أن هذه الطبقة الأكثر جدة تتضمّن الايديولوجيا الماركسية حديثة العهد، والأ

يعكس هذا اللحم حقل الاختلالات، الذي يظل غير هجومي - وهذا لا يعني أنه غير منظور - طالما بقي النظام السياسي / الاجتماعي مستقرًا. ولكن عندما ينقلب النظام، تتجسد فجأة تلك الاختلالات، السلبية حتى الآن، وتتجلى في بنى جديدة، هلاسية صراحة في بعض الأحيان، وتغدو هجومية، عدوانية وتؤثر في كل المستويات الفكرية والجمالية، حتى أنها تتسبب في مسالك اجتماعية غير موجودة من قبل. مثال ذلك، سلوك التكنوقراطي «الإسلامي» الجديد ذي الجبهة العابسة، المقطّبة، المعاندة، الذي يطرح لبس ربطة العنق، ويتكلم بطريقة قاطعة، ولا يأبه لوجود مخاطبه - نظراً لأنه ينكر أصلاً وجود كل شيء سواه - ويرفض استعمال اللغات الأجنبية، ويظل، مبدئياً، غير حليق كما ينبغي. إن هذا السلوك ليس «إسلامياً» في الحقيقة، مع أنه يريد أن يكون كذلك. إنه بالحرى التناج الاجتماعي لكراهية صادرة، هي نفسها، عن اختلال فكروي حيث يكمن نوع من اسلام مجاهد، ثأري، وينصهر مع نموذج بيروقراطي ثوري، قصير النظر جداً. إن كل الانسجومات، كل المفاتن والمواريث التي تدوزن عادة ايقاع حياة الشرقي الموزونة ومرونته الودية، يجري طمسها لصالح تصلّب معين يريد أن يكون غير قابل للعلاج. وإن تداخل هذين السلوكين المتناقضين - نوع من «توافق التعاندات» - إنما هو وضع جديد، شكل فجائي لم يوجد في المجتمع التقليدي، حيث لا يزال يهيمن موقف المسلم الاتكالي (إن شاء الله) على الرغم من كل المحاولات الرامية لاقتلاعه من جذوره، ولا في المجتمع الغربي حيث تأتي غالباً لباقة مدنية معينة، لإضفاء الطابع الانساني على السمات المتحرّجة للبيروقراطي اللاشخصي.

ولا تقف هذه الاختلالات - الفكرية، الجمالية، النفسية - عند حدود تلويث كل المشهد الاجتماعي، بل إنها، حين يجري تفعيلها في مستوى العقيدة المهيمنة، تقلب جوانب كاملة من الواقع، وذلك من خلال إع

التوقف أمام بائع تبغ وسجائر. «فسأله السائق: لماذا التوقف يا سيدي؟

- ما بالك! لأجل شراء سجائر.
- السجائر، تباع في الجامع.
- لكن الجامع بيت الله، ويُذهب إليه لأجل الصلوات.
- خطأ! لأجل الصلاة، يا سيدي الكريم، يجب الذهاب إلى الجامعة.
- والحال، أين تجري الدراسات.
- يا سيدي الكريم، الدراسات تجري في السجن.
- السجن هو المكان الذي يُحبس فيه الأشرار.
- خطأ أيضاً! يا سيدي الكريم، الأشرار يوضعون في الحكومة».

جميع الوظائف تبدّلت في هذه النكتة الملأى بالحبائل. ففيها يغدو الدين تجارياً ونفعياً تماماً، بينما تتحول الجامعة إلى سيرك لتجمّع سياسي / ديني، ويغدو السجن مكاناً للدراسة والحكومة ملاذاً للمجرمين. هذا معناه أن لا شيء في مكانه. هنا، القطيعة ليست كامنة / ضمنية فقط، تشوّه الأشياء تارة وتفسد الأفكار تارة، أو تشرط المسالك الهذيان تارة أخرى، بل انها ترفع أيضاً إلى مصاف منظومة كلية تشمل كل شواطئ الواقع. إنها تغدو، بطريقة ما، هيكل كل نظام الوجود، الذي يقوم بدوره على سوء تفاهم كبير، وحتى على اختلال هائل. وعندما يتعدّى هذا الاختلال عتبة معينة من التسامح، يغدو من الممكن رصده، ويصبح شفافاً: ففي الوقت الحاضر لا يمكن لأي كبت أن يخفي حقيقته الصارخة ولا يمكنه إسكاتها. وإن ضخامة الضربة المعاكسة كبيرة جداً، بحيث إن معظم الناس - على الأقل أولئك الذين لهم عيون - يرون المزايدة، ويكتشون فجأة أن الملك عارٍ؛ والأكثر شطارة يعملون على إشعال النار من كل حطب.

٤ - ثلاثة خطابات اختلالية

إن تجذير الاختلالات الثقافية

رسام الشعب - نوع محروم خرج مؤخراً من منبذه الشعبي -؛ صاحب رتبة عالية يمثل اللغة الرسمية؛ وفيلسوف هو نموذج مثالي للمفكر العضوي، في المعنى الذي أعطاه غرامشي للمصطلح. سوف اسميهم على التوالي: الفنان^(١٠٣)، الموظف الكبير^(١٠٤) والفيلسوف^(١٠٥). صحيح أن هذه النماذج الثلاثة للخطابات ليست شاملة، لكنها أمثلة حية تمثل تماماً ظهور شكل ثقافي جديد، يريد أن يكون ذاتياً بوجه خاص، منقطعاً بشدة عن الماضي والعالم، هنا تُرسم تشابكات الجذور - الاختلالات - في منظومة شاملة تتجسّد في طوبوغرافيا النظام بالذات. وبما أن الوضع السابق للأمر قد صار تحت الحراسة، فإن الحدود بين مختلف المجالات تتلاشى؛ ففيها يغدو الدين سياسياً/ ثقافياً، بينما ترتفع الثقافة السياسية إلى مصاف لغة قدسية. في الحاضر، لا يمكن لأية حجة أن تقف في وجه هذه الخطابات الانتصارية الجديدة التي تشعر، وهي تغذى أيضاً من الأجواء النفسية المحمومة، أنها مؤهلة للنقاش في أي موضوع؛ وإذا لزم الأمر، لإنكار كل ما يمكنه أن يسير في عكس اتجاهها العام، ويجري استعمال الوسائل الأكثر تنكيلاً ومطاردة، لأجل استدماج المناهضين أو طردهم، عند اللزوم، وتحجيم غير المرغوب فيهم، وطردهم مشعوذي الحداثة الذين لم تتوقف صفقاتهم الخدّاعة عن اجتذاب النفوس الضالة. ألم تستخدم الثورة كصاعق في كل هذه البلبلة؟ وفي الوقت الحاضر، ألا تبرّر كل التضحيات؟ ألا تضع حداً لكل أنواع التفاوت التي كانت لا تزال، بالأمس، تمرّق البلد، جامعة على هذا النحو المتناقضات في مقام معرفي وحيد؟

أخيراً، بنظر الفيلسوف، بيئة خصيبة ازدهر فيها «الفن الشيطاني»، أي الفن الحديث بلا مداورة. في المقابل، يريد النظام الاسلامي الجديد أن يكون ترياق الشر. وبوجه خاص يريد أن يكون مشغلاً لإعادة صهر القيم، ولكنه تقويم جديد يمكنه أن يكون، مع وضع التاريخ بين هلالين، عودة إلى مصادر الإسلام.

فما هي طبيعة هذا الفن المعاد تقويمه؟ في رأي فنّاننا، لا بد للفن من العودة إلى الشعب، والاستلهام منه، وبذلك لا بد له من ايقاظه وتنويره. من هنا جدواه، والتزامه الكلي تجاه الفكرية (الإسلام) ووظيفته التربوية؛ وكل فن منحرف عن هذا المبدأ، يكون مشوّشاً، برّاقاً، «تزيينياً»، وبالتالي يتعين عليه أن يكون طبعياً، واقعياً، يظهر الأشياء كما هي، دون تصنع، دون تدليس ودون تكلف. أما موظفنا الكبير، فيرى أن الفن الصحيح هو ذلك الذي يقف فيه الفنان إلى جانب الشعب، ويرى العالم من خلال النوافذ التي فتحها الشعب، وبالتالي حين يصغي على هذا النحو للصوت الشعبي، يغدو مرشده ومنوره. وبالنسبة إلى الفيلسوف، يعتبر الرجوع بمشابة تدفق وشيك لفنّ رحماني، بمثابة نوع من التحالف الجديد مع الألوهة. باختصار، يؤدي التكيف مع الوضع السابق إلى اختلال آخر، في نهاية المطاف، لأن وهماً كبيراً يرتسم وراء هذه الخطابات كافة: الاقتناع العميق بأن الزمن الطولي للتاريخ قد جرى تحويله إلى زمن دائري، وأن نقطة الرجوع قد جرى استدماجها مجدداً، وأن الحداثة قد جرى قطعها بذلك وتجاوزها.

يبدو أن فن

١٩٦٧، إلى أبعد من ذلك: «إن الأسس العقائدية والجمالية للواقعية الاشتراكية هي التالية: الإخلاص للعقيدة الشيوعية؛ وضع الفنان نشاطه في خدمة الشعب وروح الحزب؛ الارتباط الوثيق بنضالات الجماهير الكادحة؛ الانسانية الاشتراكية والأعمية؛ التفاؤل التاريخي؛ رفض الشكلية والذاتية والبدائية الطبيعية على حد سواء»^(١٠٦).

لن نتاح لي الفرصة هنا لتطوير أسس هذه المشابهات، لذا أكتفي بالقول إن توافقات هذه الأطروحات السوفياتية مع الوظيفة العقائدية للفن في إيران الاسلامية، هي توافقات مذهشة. فحين يبالغ كثيراً في تمجيد الشعبوية والقيم الرعائية، وفي تحذير وظيفة العقيدة بإفراط، إنما يؤدي ذلك إلى منطق حصري ويجري تحويل الفن والفكر في اتجاه المنفعة، الأمر الذي يفضي، حتماً، إلى نوع من الواقعية الاشتراكية أو «الاسلامية»، إذا شئتم. لذا يبدو لي أن الفن الشعبي في إيران الثورية، على الأقل في مظاهره الشعبوية والدعائية، هو في طريقه إلى الخضوع، بشكل غير واع وبمداخلة، لمسار سأصفه هنا بمسار التفريع السوفياتي. يُضاف إلى ذلك أن معظم العناصر مجتمعة فيه: ذكر الواقع الثوري، الذي يحل محل بؤس الواقع المعاش، المنحط أكثر فأكثر؛ الفجوة بين مخططين واقعيين متباعدين: الحياة اليومية كما هي، وهذا المجال الخادع / الوهمي الذي يعد بأمل بعيد؛ الوظيفة التربوية للفن المفترض فيه شفاء الإنسان الممرتن - وهو بالمناسبة المحروم الاسلامي -؛ وأخيراً الدور

إلى القديم . إنه هو الذي يكنس الثقافة الفاسدة من الشوارع ، ويسترجع الثقافة الأصيلة المكبوتة داخل المنازل والبيوت . إن استرجاع القديم يعمل على نحو يعيد ظهور المكبوت ، فيطفو على السطح ويطرد الوحش النجس من المجال العام ويبعث طهارة الدين ، معدّلاً بذلك مضمون نظرتنا إلى العالم والوجود . وإلى مَ نصل نحن بهذه الطريقة؟ إلى خلاصنا ، أخيراً ، من التفرنج الشيطاني الذي يعتبر مصدر كل ارتهان .

ولكن هاكم الفرق ! وهو أن موظفنا الكبير يستعمل - ربما على مزاجه - اللغة نفسها التي يريد محاربتها ، أي لغة المتفرنجين ؛ وبكلام آخر نقول إنه يستعمل خطاباً ما بعد هيغلي يستفيض بمرح في شرح العدمية النيتشوية والارتهان وازدواج الوعي . وربما لا يأخذ في الحسبان أن الإطاحة السياسية بالنظام لم تبدل بنية الحداثة المستبطنة ، وإنما بدلت مضمونها فقط . بعبارة أخرى ، نقول إنه يلصق ، بفضل الإضفاء الإسلامي ، معرفة خطاب ما قبل الحداثة ، فوق واقع اجتماعي متأخر عنه تاريخياً . هنا أيضاً نشهد تشابك جذرين يشوّهان بعضهما بعضاً ، ويتمكن أحدهما (الحداثة) من الهيمنة بنويّاً على الآخر . فلنكن جدّيين ! هل يمكن حصر حداثة صارت ، برضانا وبالرغم منا ، ظاهرة لا رجوع عنها ، قدر المعمورة والشكل القبلي لرؤيتنا للعالم؟

كل شيء يغور في الحداثة ، وفي المقام الأول أولئك الذين

«parsifal»: إن السلاح الذي جرح، هو وحده الذي يشفي الجرح.

أما فيلسوفنا، فإن رؤيته للرجوع تمجّد ترجيعات نغميّة هيدغرية، وهو بالتالي يرى مصير العالم والدين والفن من خلال الشبكية الوجودية لنسيان الوجود. إن فن الغرب هو فن شيطاني، لأن الحقيقة تتخفى فيه وتتجلبب في صورة الأنا، صورة التكبر والنفس. وإن الفن المقبل المرشح للولادة في خلال هذه العودة للقديم، هو، بالعكس، فن رحماني، إنه عصر الرحمة والحوار والإبلاغ المباشر. هنا يمحي دور الفن وراء بارقة الحقيقة ويغدو الفن مجهولاً من جديد. ولكن عندما يدخل الدين في المنفى وتنسحب الألوهة، عندئذ يتسابق الفنانون والشعراء بوجه خاص إلى فضل تجديد العهد، وإحياء الدين، ويتعاون جميع الفنانين على القيام بهذه المهمة المقدسة. هذا التجديد هو إنشاء الجمهورية الإسلامية، ويأمل فيلسوفنا أن يولد شعراء وفنانون كبار عما قريب، لأن علامات ظهورهم باتت مرئية. ومن جهة ثانية، إذا كان النظام الحالي قد فقد الاتصال بالفنون التي صارت غريبة عنه، إذا جاز القول، فإن سبب ذلك هو ارتباط الفن المعاصر بالوجه النفساني (الشيطاني) للحدث.

إن كل الاستدلال الرفيع لفيلسوفنا يرتكز على تأويل هيدغري للحقيقة. وبالإجمال، كان لا بد من فيلسوف ألماني من القرن العشرين، منكّب على المراحل «التاريخية» للفلسفة الغربية، ويقوم بتأويلها في اتجاه تغييب الوجود، ويكشف، على طريقته، مختلف

تحديدها في مكان ما، بل يعجز أيضاً عن رفعها في مواجهة تيارات الغرب الجهنمية. وربما تكون المانيّة (المثنوية) التي يظهرها فيلسوفنا هي الأشد والأقوى بين كل المثنويات التي صادفناها حتى الآن؛ ذلك لأنه يتخفى وراء مصطلحات بناء من طراز كشف، حقيقة، تجديد العهد. وما أكثر المفردات البيانية الطنّانة التي تذكّرنا بلغة الأنبياء القدسية، أكثر مما تذكّرنا بتأملات المفكرين الانتقادية.

وبالتالي، يتهمّج فيلسوفنا على الشيطان ذاته، بواسطة مصادرات ومسلمات غريبة؛ وبالمناسبة، بواسطة «الميثولوجيا» الهيدغرية. وبما أنه حدد موضع الشيطان وحيدّه، فإنه يضيفي الملائكية على كل ما يبدو نقيضه المقابل: النظام الروحاني الجديد. ولئن ظل هذا النظام لامبالياً بالفنون السابقة لولادته، فذلك لأن هذه الفنون، شيمة النظام الذي كان يدعمها، قد تعاونت مع الشيطان واشتركت في مكائيد ومؤامرات مشبوهة وسالبة. وباختصار، لم تكن فنوناً «جديّة»، وبما أنها لم تتحاور مع الروح القدس الذي استولى على العالم بأسره، وبالدرجة الأولى على فيلسوفنا ذاته، فما عليها إلا أن تحلي الساحة؛ ومع ذلك، ليس الوضع ميثوساً منه، لأن فيلسوفنا يعلن

والرفض الهذيانى للآخر. كما أنه لا يستطيع العمل إلا بالتصفيح والتلصيق، لأن جزءاً من وجودنا يظل غريباً، بشكل غير واع، ومحتوم وبلا شفاء. ولكن ما يجري طرحه ليس الذي اكتشفناه بذاتنا، بل الغرب كما هدم نفسه بنفسه. هنا، نرى جيداً التأثير الكاسح للأفكار الصادرة عن الغرب، والتي يقوم الغرب بجلدها بقسوة في أيامنا. إنها نظرة الآخر التي تعكسها لكم المرأة؛ فكل ما كتبه الغرب يقع فوقه مغتنياً بشوائب ألف مفهوم سيء، وكل ما كان قد أبعدته ينهال عليه، مثقلاً بالأثر التضخيمي لألف مجهر مشوه.

هكذا نكتشف الغرب من خلال فلاسفته وعلمائه النفسيين والاجتماعيين. إن نظرتنا مبتورة؛ فهي ناقدة للغرب، لكنها عمياء عن أحوالنا. صحيح أن نقد الآخر يعطينا قيمة؛ فلا نغدو ذواتنا إلا من خلال نفي الآخر، لكن المرحلة التالية التي يمكنها أن تقوم على نفي هذا النفي (كما يقول هيغل)، واكتشاف الآخر المختلف والمتماهي مع ذاته في آن، لم تبصر النور بعد. إن ظهورها يستلزم مستوى آخر من الوعي. ربما يستلزم، من يدري؟ مستوى آخر من الموضوعية، وبفعل التناقض والمفارقة، ربما يستلزم إفقاراً داخلياً للوجود.

الكتاب الرابع
المرتكزات الاجتماعية للاختلالات

I المثقفون

فلنقل بادية ذي بدء إن قسماً كبيراً من مثقفي العالم الاسلامي يستحمون في حقل الاختلالات. وفوق ذلك، ليست وظائف المثقف والعالم والكادر محسومة فيه مثلما هي محسومة في الغرب. فبالنسبة إلى جمهور أبناء جلدتنا وديننا، يعتبر المثقف، بلا ريب، هو ذلك الذي يحسن القراءة والكتابة، ذلك الذي يمارس نشاطاً ذهنياً، سواء كان طبيباً، كاتباً، مترجماً، مهندساً، استاذاً، أم كادراً. إن المثقف، بوصفه «وعياً تعساً» للمجتمع، يشكّل فئة مستقلة، يقوم مركزه المعرفي على النقد، لم ير النور بعد في بلادنا. لذا، لا يتمتع حقاً بمكانة خاصة. والأكثر بروزاً هم أولئك الذين يعارضون السلطة، ويكون عملهم سياسياً قبل كل شيء. وإذا جاز القول، يشكّل هؤلاء النواة الصلبة للمثقفين الملتزمين، وهم بذلك فكريون ومنظرون أكثر مما هم مثقفون.

في عداد المهام التي تقع على كاهل مثقفينا، يجب التمييز أولاً بين وظيفة الترجمة، التي تلعب دوراً أساسياً في البلدان غير المستعمرة، التي لم تعرف لغة غربية كناقلة ثقافية. ونظراً لكون المترجمين قد وصلوا إلى مصادر المعرفة الحديثة، فإنهم يتمتعون تقريباً بالامتياز نفسه الذي يتمتع به المفكرون الذين يترجمون لهم. إنما المترجمون هم وسطاء المعرفة؛ إنهم أولئك الذين يكتفون المعارف المتنزلة من العلوم الانسانية والطبيعية مع بيئة غريبة في نهاية المطاف عن تلك

العلوم، حتى لا نقول إنها معادية لها. ففي مجال المنشورات، مثلاً، يرتدي إسم المترجم أهمية مساوية، إن لم تكن أكبر من اسم المؤلف الذي يترجم له.

بعد ذلك يأتي القسم الأكبر من المؤلفين والكتاب والصحافيين الذين يستعملون الترجمات هذه، نظراً لمعرفتهم الناقصة باللغات (هناك بلا شك استثناءات كثيرة)، ومعظم هذه الترجمات رديئة جداً. فقد جرى وضعها غالباً خارج السياق، وقامت بتغذية جيل كامل من الكتاب والمثقفين الذين يوزعون ذات اليمين وذات اليسار تنف معلومات مفككة، ويستخدمونها عشوائياً لإسناد أفكارهم. ومن هنا الأحكام الجاهزة، وهذه الرؤى الحصرية، التي تستخدم اللعن والحرم أكثر مما تستخدم الاستدلال المعلن والانتقادي. وبما أن الترجمات تجري، من جهة ثانية، بلا سياسة متماسكة، بلا رؤية شمولية، فإنها تقدم نفسها كأنها كتل من معارف متناغمة، يمكنها أن تسمح لنا بأن نعرف مدرسة فكرية إلى حد ما، لكنها تنتشر على شاكلة معارف متناثرة، غير مرتبطة بأي سياق خاص، تقوم بدلاً من توجيه القارئ في مجال متخصص، بتضليله وتشريده في متاهة العلوم الانسانية، وهي تفتقر افتقاراً شديداً إلى خارطة فلسفية تحدد موقع الت

إن هذه الثغرات الفاعرة لا تتوصّل إلى تكوين مجمع معرفي متناسق، وبما أنها تشكّل «ثقباً» في شبكة المعارف، فإنها تستسلم للإمتلاء بالاستنتاجات المتسرّعة والمزاجية جداً، التي يتخيلها القراء غير المتنورين، بحيث تتكوّن عن هؤلاء المفكرين التعساء النظرات والرؤى الأكثر تشوهاً. وإلى الاختلالات الكثيرة جداً في المصطلحات، تنضاف التشويهات التوهمية التي ينتجها المخيال، وتتراكم المفاهيم الخاطئة وتتضخم، مثيرة، بدورها، مفاهيم خاطئة أخرى أكثر فداحة، بحيث ينتهي الأمر بنا إلى العيش في عالم مرايا مشوّهة، حيث تكون الأفكار الجوهرية كلها فاسدة في أساسها بطريقة ما. إن هذه الاستيعابات الزائفة تخلق وعياً فاسداً يكون أشد ضراوة من الحس النقدي الذي يكون قاصراً حين يرمي إلى تفكيك الأفكار وربطها بسياقها المناسب. زدّ على ذلك أن الفكر يكون متّجهاً نحو الأسطورة، وذلك بحكم شحنته الدينية (اللاواعية غالباً)، وأن سلطة الفكر التحليلية الساعية إلى تفكيك الأشياء وخفضها إلى عناصرها البسيطة، لم تتجذّر فيها تمام التجذّر. عندئذ تهيمن السلطة التلفيقية وتقوم بصهر عشوائي للأفكار الأشد تعارضاً، وت

النقص الملازم لإرث الثقافة الغربية، والنقص المتعلق بالعلم المدرسي للعالم الايراني - الاسلامي . فمن الظواهر النادرة جداً أن يكون ثمة مترجم ذا معرفة متناسبة في اللغتين، وفي الوقت نفسه ذا دُرْبة صحيحة في الثقافتين اللتين ينقل من إحداهما إلى الأخرى .

زُدْ على ذلك أن اختيار الترجمات لا يتم من جرّاء التقارب، أو بفعل الاهتمام بوضع خرائط للمعرفة، أو تكرار الأقاليم المستشكفة، بل يتم وفقاً للالتباس الفكروي . فهذا النزوع الفكروي جعل جزءاً كبيراً من أعمال مكسيم غوركي تترجم في ايران، بفضل مجهودات حزب توده في الأربعينات، وجرى الاعتراف به بوصفه الكاتب الأكثر تقدماً في الأزمنة الجديدة، كما أن رومان رولان، المتميز بالشهرة العالمية ذاتها، كان قد أصبح أعظم كاتب في العالم .

كما تضاف مسألة الترجمات المزدوجة، إلى هذه الثغرات في الترجمات المشوّهة . فيترجم كتاب انكليزي إلى الفارسية انطلاقاً من الفرنسية، أو يترجم إليها كتاب الماني انطلاقاً من الترجمة الان

جداً⁽³⁾، يستوحي هذه الترجمة؛ زد على ذلك أن مطهري غالباً ما يخلط بين ستاس وهيغل، وإن استشهاده التي يوردها في بعض أبحاثه⁽⁴⁾ هي من ستاس وليس من هيغل. لكن ما يصدم أكثر، فضلاً عن هذا الالتباس، هو لبس السياقات. إن مطهري وهيغل لا يتكلمان اللغة نفسها، ولا يستندان إلى المعطيات الغيبية ذاتها. فمطهري يريد فهم العالم الهيغلي وحتى ما بعد الهيغلي، بواسطة الشبكة المفهومية ما قبل غاليليه، وبواسطة اقتناع حميم بتفوق الإسلام الذي لا يرقى إليه الشك، لأنه كان يعيش في آخر القرن العشرين هذا. ولولم يكن الأمر متعلقاً إلا بالفهم المحض، لكان الأمر مشروعاً، ولكن مطهري يريد علاوة على ذلك انتقاد مفكر غريب عنه، من حيث السلالة واللغة والعالم، لأن بين الاثنين تدرج الفجوات المعرفية الناجمة عن المتغيرات الجذرية والرؤيوية في العالم. فحتى وإن كان مطهري ماهراً عبقرياً في حصافته، فإن ترجمة كتاب عن هيغل بالانكليزية لا يمكنها أبداً أن تسمح له بإدراك التضمنات السلالية لروحية المفكر الألماني. وفوق ذلك أن ما يدهش مطهري هو التفريق الذي يقيمه هيغل بين العلة والعقل. فهذا التفريق أساسي

جيدة، لكنهم غير قادرين على نقله إلى لغتهم الأم. إنهم أولئك الذين فقدوا كل اتصال بذاكرة البلد، حينما أجروا دراساتهم في الخارج منذ طفولتهم أو في سن المراهقة. صحيح أن بعضهم يسترجعون اتصالهم المفقود بقوة مجهوداتهم المبذولة، ويستعيدون الوقت الضائع، وينتهي بهم المطاف إلى إيجاد وسيلة تعبيرية مناسبة كثيراً أو قليلاً. لكنهم نادرون، لأن هذا يستلزم رجعة، وتعلماً قاسياً وبشكل خاص يستوجب صبراً في مواجهة كل محك ومحنة. كما يستلزم هذا إعادة قولبة ونمذجة للعادات الفكرية التي لا يسهل تحصيلها في معظم الأحيان.

ولئن كان بعض الشبان، المقطوعون عن فروع العلوم الانسانية الحديثة، يعاودون اكتشاف ثقافتهم الشخصية من خلال الموشور التشويهي للمستشرقين المتميزين، فإن شاباً آخرين يعيشون في البلد ولا يملكون هذه الامكانية، إنما ينهجون الطريق المعكوس: أي أنهم يهتدون إلى الغرب بفضل الترجمات الرديئة التي يقوم بها متفرنجون «محليون». من هنا الفصل والخيار هنا وهناك، لدى المتفرنجين والسلفيين المزعمين على حد سواء؛ فعلى الدوام يوجد في مكان، شيء ما مختل، هوة ما لا بد من ردمها، وتمثل هذه الفجوات ثقباً متغص

بحكم انتمائها إلى الطبقة المتوسطة، بترية سلفية معينة، وتعيش وجدانياً في برج ثقافة الشعب. صحيح أن الدراسات العليا التي تابعها بعضهم قد شوّت إلى حد كبير هذا المكسب العائلي الأول، ولكنهم لا يشعرون أنهم مرتاحون مع طبقة التكنوقراطيين الأكثر يسراً وتفرنجاً.

ماذا يتعين أن يقصد بالبرجوازية الصغيرة؟ عبد الله العروي^(٣) وضع تفسيراً لا يبدو مناسباً. يقول لنا العروي: في التحليل الماركسي ليست البرجوازية الصغيرة طبقة، زد على ذلك أن الماركسية قائمة على نفي البرجوازية الصغيرة بصفتها هذه. إنها شبكة متنافرة بالمقارنة مع الثلاثي المأثور: الارستقراطية العقارية، البرجوازية، البروليتاريا. إن البرجوازية الصغيرة مجّمع متنافر من جماعات وجماعات فرعية، ليس لها أية مكانة محددة في عقلانية النظام الرأسمالي، الأمر الذي يجعلها تلوذ بماض تحنّ إليه. إنها تضم في إيران طبقة وسطى متنافرة وواسعة جداً، تشمل صغار تجّار البازار، وبعض فئات الموظفين وصغار الملاكين العقاريين، الخ. ثقافياً، هذه الطبقة أكثر تعلقاً بالقيم التقليدية من الفئات الأشد يسراً، فئات الكوادر والصناعيين و

أن نكون أمام مثقف علماني - لا يهم إن كان يمينياً أو يسارياً - أو أن نكون أمام مثقف مكوّن على الطريقة الغربية، ولكنه مهتم بإعادة القيم التقليدية - العاشقون للصيغة الإسلامية للثقافة المضادة - أو أن نكون أمام شخص يسعى إلى التوفيق بين الحداثة والإسلام، كما هو حال تيار الإسلام المتنوّر عند مهدي بزرگان، أو أن نكون أمام منظر إسلامي راغب في الإطاحة بالنظام القائم للإسراع بإحداث الثورة الاجتماعية/ المهدوية (مجاهدو الشعب)، وأخيراً أمام أصولي متعصب من طراز حزب الله. هذا يعني أن الفئات أو الأصناف غير محدّدة فيها تحديداً دقيقاً. صحيح أن هناك ثنائيات تتقاطع وتشابك في مستويات شتى، ثنائية تكوينية بين هؤلاء الذين يتوصّلون مباشرة إلى المعارف الحديثة أو أولئك الذين يتوقفون عند الترجمات، ثنائية فكرية بين التقدميين والتقليديين. ومن جهة ثانية، يمكن أن ينتمي التقدميون إلى جماعتين تكوينيتين متباينتين (معرفة الغرب مباشرة ومداورة)، مثلاً يمكن أن يتلقى التقليديون تأهيلاً حديثاً في الخارج، كما هو حال معظم التكنوقراطيين ذوي اللحي «الإسلامية» الذين عادوا من الولايات المتحدة.

المتفوّقين جداً أن ينجحوا في مباريات دخول المدارس التقنية والطبية، ويتعيّن على التلاميذ الأقل موهبة أن يرتادوا كليات العلوم الانسانية، حيث يصبحون بعد عدة سنوات من الدراسات، مثقفين وموظفين في آن. إن عدد المثقفين الأحرار حقاً والذين لا يكونون في رعاية الدولة، هو عدد ضئيل نسبياً. وفي الوجه الآخر للطيف، أمامنا المؤسسات الدينية التي تكوّن المالاي، والتي حافظت نسبياً على الطابع القروسطي لبنيتها. من هنا الثنائية بين عالمين أكاديميين متعاكسين جذرياً، مع وجود شبكة ملحوظة ودقيقة بين الاثنين، من شتى ألوان العدوى الثقافية.

إن المثقفين معرّضين جداً للأخطار، نظراً لوقوعهم بين نارين، نار التكنوقراطيين ونار علماء الدين. وهم، فوق ذلك، أولئك الذين يعانون بشدة من جراء كل الاختلالات التي تصيب عدواها خطر المعرفة. إنهم متفرنجون، على ذوقهم، من حيث مضمون خطابهم الفكري المتميّز، ويستفيدون من كل الأفكار غير المهضومة جيداً التي تحوم في الهواء، وهم فوق ذلك مناضلون وناشطون جداً؛ إنهم المحرّكون الأشد حماس

بالطبع، هناك شيء من الحقيقة في كل ذلك، ولكن المرء حين ينفس كل ما عنده على هذه الأمور فقط ويمتنع عن تحليل العناصر المتعددة التي تنتج هذه الأزمات ذاتها (الميكانيزمات)، إنما يرفض تعميق مسألة تخفي أسبابها الظاهرة دوافع بالغة الأهمية، من ناحية ثانية. زد على ذلك أنه لم يحدث أي شيء باهر يستحق الاهتمام، عندما زالت في وقت لاحق أجزاء كبيرة من هذه العوائق، بفعل المنفى والشتات الإيراني. وكون العقبات نفسها قد ظهرت مجدداً، بعد اطاحة شديدة بالنظام، وجرى استرجاعها هذه المرة على نطاق أكثر تضيقاً من ذي قبل، إنما يدل على أن مراهة المسالك ناجمة عن قوالب ثقافية متجذرة في أعماق النفسية الجماعية، ولا بد لأي تفسير شامل من أن يأخذ ذلك في الاعتبار.

٢ - الخوف المزدوج من الانحباس

إن ما يميّز جماعة المثقفين الرديئين، الأكثر عدداً بلا شك، هو خوفهم المزدوج من الانحباس الثقافي، لأن هؤلاء المثقفين، على الرغم من مطالبهم الاجتماعية (وهذا أمر مبرر غالباً) والثقافية (وهذا أقل

هدايت (١٩٠٣ - ١٩٥١) كاتب ايران المعاصر الكبير، يختصر تماماً هذا الوضع المأزمي حين يصف ذاته بأنه «عصا مذهب ذات طرفين»، والذهب يجب أن يؤخذ هنا، كما يقول يوسف ايشاغبور^(٨)، كما يؤخذ في الأحكام، بوصفه صورة الغائط، «لا من هنا، ولا من هناك، مطرود من هنا، ولا يصل إلى هناك».

لئن كان المثقفون يَحْتَقِنُونَ، وجودياً، في الخوف الانحياسي، فإنهم اجتماعياً يتأرجحون، كما قلت سابقاً، بين قطبين جاذبين: قطب التكنوقراطيين وقطب علماء الدين، والانتيلجنسيا الموزعة بين هذين العالمين، لا تملك معرفة التكنوقراطيين الدقيقة/ المفيدة، ولا معرفة أصحاب الدين العضوية، المتناسكة، المدرسية؛ كما أنها لم تتمكن من صنع مركزها المستقل، الخاص بها، من خلال اشهارها سلاح النقد المخيف. فهي من دون النقد تكون بلا دفاع: إنها تحت رحمة كل الهجمات الفكرية وكل الأغلاط الاستدلالية والتحكّمية. وهي لا تدهش التكنوقراطيين الذين يحرقونها ويعتبر

سواء. ولم يكن في امكانها القيام بهذه الوظيفة إلا إذا ظلت خارج الانحياز والمنازعات المذهبية. إن السجال الأكبر حول التفرنج والعلاقات بين الحداثة والتراث الذي رأى النور في ايران، في الستينات والسبعينات، كان يمكنه أن يكون خصباً لو أن المتنازعين ابتعدوا عن الخلط بين الخطابين ولم يحضروا، بلا وعي، الميدان لظهر ظلامية جديدة. ولكن حين يوضع المحراث قبل الثورين، وحين تلغم وتنسف أسس العلمانية، فإنما جرى قضاء الانتيلجنسيا الايرانية على الحداثة لصالح بدائية وجديدة، وبذلك أخطأت المرمى، لأن الأحداث، بعد الثورة، كنستها حرفياً؛ وحين عجزت عن مواجهة العاصفة، تمّ القضاء عليها لاحقاً، وغابت في نوع من الحياة السرية، وعاشت خاملة، بين بين، على هامش النظام الجديد.

عملياً، يبدو المثقفون عندنا كأنهم صليبيون ذاهبون إلى محاربة طواحين الهواء، أكثر مما يظهرون كمفكرين حكماء يت

